
مفترق الطرق
دكتور حسين كامل بهاء الدين
دار المعارف

د. حسين كامل بهاء الدين

مفترق الطرق



دار المعارف

الغلاف

إهداء من الفنان

الدكتور أحمد نوار

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ — فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ Email: maaref@idsc.net.eg

المحتويات

الموضـــــــوع **الصفحة**

الجزء الثالث
زلزال الحادى عشر من سبتمبر
التوابع ..المعقبات ..النتائج

الجزء الرابع
العمـــــل والأولويات

الموضـــــــوع		الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

فى مطلع عام جديد، ومصر تحتفل بعيد ميلاد السيد المسيح الذى جعله الرئيس مبارك عيداً لكل المصريين تأكيداً للوحدة الوطنية ودعماً للنسيج الوطنى الواحد الذى ساد فى مصر عبر قرون طويلة.. فى مصر قلب العالم العربى.. فى هذا المكان الذى شهد أول حضارة فى التاريخ.. وفى نفس المنطقة التى هبطت فيها رسالات السماء حاملة بشائر الخير والرحمة والسلام تسود مشاعر مختلفة وقاسية تتعلق بالزمان والمكان وتؤرق الكثيرين وتؤثر على شعورهم بالأمان.

فى كثير من الأحيان يشعر الشعب العربى بمزيج من الإحباط والتوتر، ذلك أن الجو المحيط بالمنطقة العربية جو يبعث على الأسى، جو يسوده التبجح ويخيم عليه جموح القوى، ويسرى فيه الظلم أو الإحساس به على الأقل، وتطغى فيه مشاعر من العجز تجاه قوى طاغية ضربت عرض الحائط بموازين الحق والعدل والشرعية، وقلبت الحقائق، وفى كثير من الأحيان لم تعد تحتاج إلى فضيلة الحياء، فتصرفاتها مبررة مسبقاً، وكلماتها نافذة مهما كانت المعارضة، وضرباتها ساحقة لا يستطيع أحد أن يعرض نفسه

لها.. شعب عربى يُضرب بالقنابل والمدافع وتَـدْهَسُ أطفالـه ونساءه جنـازير الـدبابات، وتهـدم الطـائرات والقنابـل البـيوت علـى أصحابـها، والعـالم فـى معظـم الأحيـان يشيح بوجهـه ويتغاضـى ويتظـاهر بعدم الالتفات فى إطـار سـقوط مشين للشـرعية الدوليـة، وتطبيق فاجر لمعايير مزدوجة.

إن الدول النامية والدول العربيـة والإسـلامية والـدول الفقـيرة تقف الآن فى مواجهة مشـهد مأساوى تعربـد فيـه القـوة الباغيـة، وتزداد الفجوة الحضـارية بـين العـالم المتقـدم والعـالم النـامى ويـتم وبغـير حيـاء التربـصُ بالضـعفاء وحصـارُهم وترصـدهم وجـرح كبريائهم، بل واتهامهم بما لم يرتكبوه فى كثير من الأحيان.

وهـذا المشـهد المأسـاوى كانـت لـه مقـدمات وإرهاصـات ودواعٍ وأسباب وتوابع ومعقبات تماماً كما يحدث فى الظـواهر الطبيعيـة.. ففى السياسة كما هو فى الطبيعة.. فإن الزلازل لا تحـدث فجـأة ولا تنتهى بغتة وإنما لها مقدمات وتعقبهـا توابـع، فـالتحرك النسـبى لطبقات الأرض يؤدى فى لحظة معينة إلى ظـاهرة الـزلازل. وكـذلك فى الحياة فإن العوامل الاجتماعية والاقتصـادية والسياسـية تحـرك البشر وتؤثر فيهم وتزيد الفجوة بين شرائح المجتمع وتغذى الفتنة بين طوائفه، وبالمثل فإن النظم السياسية والاجتماعيـة إن لم تتطـور لاستيعاب ومواكبـة الـتغير والتطـور فـى وسـائل الإنتـاج والتفجـر المعرفى والـدور المتعـاظم لوسـائل الإعـلام والاتصـال، وإن لم تتسـع

لتحقيق الطموحات والتطلعات للأفراد والجماعات فإنها فى لحظة معينة قد تتعرض لانفجار من الداخل.. وعلى أية حال فإنه فى لحظة معينة تصل الأحداث إلى قمة مأساوية نشاهدها على شكل أحداث وموجات من الغضب تشبه الزلازل والبراكين وتعقبها تداعيات ومضاعفات.. ويحضرنى هنا أمران:

فى السنين الأخيرة فى الحلبة العربية كنا نحس أننا أمام مأساة حقيقية.. تتزايد فيها الفجوة بين إمكاناتنا وطموحاتنا، وبين ظواهرنا الصوتية وقدراتنا الفعلية، بين إنجازات هذه الأمة وإنجازات غيرها ممن أخذوا بأسباب العلم وعملوا واجتهدوا من أجل التقدم.. وصرنا على مشارف فجوة حقيقية.. فجوة حضارية وفجوة علمية.

وكذلك كان الحال فيما يتعلق بأحداث ١١ سبتمبر وتوابعها من ازدياد سيطرة العالم المتقدم وفرض سطوته.. إن القوى أو العناصر التى قامت بهذا العمل الذى أدانه العالم لاستهدافه مدنيين أبرياء، إنما سبقته تحركات ومشاعر وأحداث سياسية واجتماعية وسّعت الفجوة بين طبقات البشر وزادت من الهوة بين أحلام البسطاء وما يتحقق على أرض الواقع، كما عمقت الإحساس باليأس والاغتراب بين شرائح ودول وأفراد أحسوا بالمرارة وتصاعد عندهم الإحساس بالكراهية وزاد شعورهم باليأس، ودفعتهم لنزعات وتصرفات هوجاء طائشة أو هجمات انتحارية.

فقد كانت هنا وهناك غفلة عما يحدث وتلكؤ عما يجب، فلا العولمة بكل تقدمها العلمى وإنجازها التكنولوجى استطاعت أن ترصد العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتحركات الطبقات الاجتماعية وإرهاصات هذا العمل اليائس الذى فجر نفسه ودمر أو ضرب رموزاً اقتصادية وعسكرية أحدثت شرخاً فى المجتمع الأمريكى، ولا نحن استطعنا فى عالمنا العربى والإسلامى أن ندرك أننا قد أهدرنا ثروات كبيرة وأنفقنا الوقت فيما لا ينفق فيه وفقدنا فرصاً كثيرة وانشغلنا بما لا طائل منه ولا جدوى من التصارع عليه، وإنما تبددت جهودنا المبعثرة فى شتات من الأمور.. وفى نزاعات وخلافات.. وشهوات وأطماع.

كانت أحداث ١١ سبتمبر لحظة فتح الستار عن مشهد مأساوى تم التدبير له والإعداد لتنفيذه فى غفلة عنه إلا من قلة. كما كانت أحداث ١١ سبتمبر وما تبعها صدمة أيقظت الكثيرين على واقعنا المؤلم وفجوتنا العلمية والتكنولوجية والحضارية التى زادت من الإحساس بالعجز واليأس.

ما العمل؟ هذا هو السؤال.. نحن فى مفترق طرق.. هل نستسلم لهذه المشاعر التى تعتصر نفوس الكثيرين وتهدد الآمال والأحلام ولا تعطى أصحابها فرصة لتغيير أحوالهم أو التجاوز عن عثراتهم؟ هل أصبح مصير الأمة العربية معلقاً

بإرادة باغ أجنبى أو طاغ عنصرى أو بنزوة أحمق أو مأفون أو بغضبة طائش أو مجنون؟ هل هذا هو مصـــير الحضـــارة المصريـة القديمـة والعربيـة والإسلاميـة التى سادت هذا المكان وسجلتـه فى صحائف الزمان ..هــل قُــدر لهــذا الشــعب أن يستكين؟ أو قُدر عليه أن يقبل الغبن والهوان؟ أسئلة تحتـــاج إلى إجابة وعلامات استفهام تحتاج إلى إيضاح.. ولعل هذا هو حديثنا فى هذا الكتاب.

القاهرة – ينـاير ٢٠٠٣

الجزء الأول
حجم التحدى وآفاق المستقبل

- التقدم العلمى والتكنولوجى
- مثلث الرعب "G.N.R." والتزاوج بين العقل البشرى والعقول الإلكترونية

حجم التحدي وآفاق المستقبل

تمهيد :

إن الأحداث الطبيعية أو السياسية أو الاجتماعية المتعلقة بحياة البشر تأتى دائماً نتيجة أسباب ومقدمات تسبقها وتؤدى إليها.. ففى الأحداث الطبيعية يستطيع العالم فى كثير من الأحيان بنظرياته وأدواته أن يتنبأ بها.. وفى الأحداث السياسية يستطيع المتأمل لمجريات الأمور وتعاقبها والمنشغل بالحياة العامة والتحولات الاجتماعية التى تغير مسار حياة الناس أن يتوقع -إلى حد ما- ما سيجرى فى المستقبل. ففى بداية ألفية جديدة وقرن جديد أفاق العالم على لحظة إزاحة الستار عن المشهد المأساوى - أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بضرب رمز القوة الاقتصادية فى أمريكا المتمثل فى مركز التجارة العالمى، ورمز القوة العسكرية المتمثل فى البنتاجون - والتى أعادت إلى أذهان الأمريكيين معركة بيرل هاربر عام ١٩٤١ والتى نتج عنها إلقاء الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية فوق هيروشيما ونجازاكى.. بالرغم من أن بعض العلماء توقع احتمال حدوث انفجار أو حريق فى غلاف الكرة الأرضية بنسبة ٣ من المليون، ومع ذلك مضى متخذو القرار قدماً فى تجربة القنبلة الذرية فى الصحراء الأمريكية التى عُرفت فى بدايتها باسم "ترينتيى" ثم قاموا بإلقائها على اليابان فى إطار خطة "مانهاتن". وبرغم الاقتراحات التى كانت مطروحة بإلقاء القنبلة على منطقة

خالية من السكان أو على قاعدة عسكرية أو إنذار اليابان بإخلاء منطقة معينة، فإن صانع القرار فى مثل هذه المواقف لا يستطيع أن يقاوم إغراء استعمال قوته القاهرة. ولم يفت فى عضد متخذ القرار الاحتمال الذى نبه إليه "إدوارد تيلر" والذى أزعج العلماء القائمين على إنتاج القنبلة الذرية ومنهم "أوبنهايمر" الذى فكر جدياً فى أثناء التجربة المبدئية للقنبلة الذرية أن يخلى منطقة كبيرة وواسعة جداً فى أمريكا قبل إجراء التجارب، لكن الحقيقة أن هناك ظاهرة تأكدت تاريخياً وهى أن امتلاك أى طرف لقوة كبيرة جداً يخلق حالة من الغطرسة التكنولوجية ويدفع أصحابه إلى إهمال صوت العقل أو الحكمة والتصرف بمنطق القوة فقط .

وهنا يبرز لدى خاطران مهمان :

الأول: أحداث ١١ سبتمبر .. هل كانت ضربة قدر عفوية وحدثاً مأساوياً مفاجئاً أم كانت فتحاً للستار عن مسرحية مأساوية تم الإعداد لها من فترة، فى ظل غفلة العالم واستهتاره بأسبابها وإرهاصاتها، وتم من خلالها تدريب القائمين عليها بدقة وعكست أدوارهم الانتحارية مشاعر ظلت حبيسة فى القلوب والعقول مدداً طويلة أحسوا فيها بمرارة غص بها الحلق، وكراهية تغلى فى نفوسهم وعزلة خلقت

عندهم غربة مكانية انتقلت بهم إلى هجرة زمنية وابتعدت بهم عن التواصل مع عصرهم، وأغلقت أمام عقولهم نوافذ الحوار والمنطق، وجففت فى قلوبهم مشاعر الرحمة والتسامح.

الثاني: لم يكن حجم الكراهية التى فجرت أحداث ١١ سبتمبر حدثاً غير متوقع، بل إن هناك من نبه إليه، ولعل من الغريب أن كتاب "الوطنية فى عالم بلا هوية-يناير عام ٢٠٠٠" قد تعرض لوقوع مثل تلك المأساة[١] *(لعل ما حدث فى " سياتل " فى الشهر الماضى من مصادمات ومن لجوء إلى العنف وإلى مظاهرات حدثت فى عقر دار القطب الأكبر للعولمة كان نذيراً يقول للقوى المفتونة " بالقطيع الإلكترونى" ولكل الشرائح المتسممة " بالتكنولوجيا " الفائقة، ولكل أنصار العولمة المنتشين بقدرتها الساحقة: إن هذا إنذار يجب أن يستوعبوه وهو يبين بوضوح أن القوى المهمشة، وأن الشرائح غير القادرة، وأن الدول النامية التى أهملت مصالحها ونُهبت مواردها وألغيت عملياً طموحاتها وآمالها- لا زالت قادرة على ردود الأفعال وردود الأفعال متنوعة ومتباينة فى مداها وخطورتها".*

---

١ – الدكتور حسين كامل بهاء الدين: الوطنية فى عالم بلا هوية.

ولعل ما حدث فى " سياتل " درس يفيد الآخرين، ويبين لهم أن " القطيع الإلكترونى " ذا الألف ذراع - مهما بلغت قوته ومهما وصلت قدرته بحكم ما أحدثه أو ما صاحبه من تقدم هائل - قد أعطى الفرصة أيضاً للمهمشين وللمطحونين والمقهورين أن يعبروا عن إحساسهم بالظلم وعن شعورهم بالمرارة وعن قدرتهم على الرفض والاحتجاج.

وإذا كان ما حدث فى "سياتل " هو مجرد مصادمات مع الشرطة أو القوات الفيدرالية فإن فى الجعبة الكثير، وإنه فى إطار الثورة "التكنولوجية " الهائلة يمكن أن تتحول هذه المظاهرات المحدودة الأثر إلى ردود أفعال ذات طبيعة مختلفة تماماً قد تطيح بأحلام " القطيع الإلكتروني" وتستطيع أن تدمر مصالحه العليا بل وقد تصل إلى إلحاق الدمار الشامل والكامل بدول كثيرة بل والبشرية كلها ذلك درس التاريخ الذى يجب أن نستوعبه وأن نعد العدة لكى لا يكون الدرس القادم أكثر قسوة وأمحق أثراً)... ومازال المرجل يغلي والغد مليء بالاحتمالات الكبار.

وإذا ما ضربنا بمشرط التحليل فى ذلك المشهد المأساوى نجد أن هناك خلف الستار وفى الكواليس عوامل كثيرة وصلت به إلى الذروة Climax أهمها الفجوة التكنولوجية والعلمية الواسعة بين عالم متقدم وصل به التقدم إلى حد الغرور وسيطرت فيه التكنولوجيا على الثقافة Technopoly، وعالم متخلف يعيش فى غياهب الفقر

والجهل. فقد شهد العالم فى النصف الثانى من القرن المنصرم وبداية القرن الحادى والعشرين تغيراً حاسماً وأحداثاً جساماً وتغيرات سريعة متلاحقة قلبت الموازين فى شتى مجالات الحياة رأساً على عقب فى إطار الموجة الثالثة والمتمثلة فى الثورة العلمية وثورة الاتصالات والثورة التكنولوجية والثورة المعلوماتية الفائقة والاكتشافات الهائلة التى حدثت فى نهاية القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة، وشطرت العالم بفجوة حضارية وعلمية عميقة.

كما جاءت أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها من تداعيات على المستوى العالمى من اختلال الموازين، وسقوط الشرعية الدولية، والتغير الصارخ فى موازين القوى الدولية، والأخطار الخارجية التى تهددنا من التدخل الدولى واحتمال العدوان، وضرورة التعامل مع الفوضى، ثم التحديات التكنولوجية وأخطرها "GNR" الهندسة الوراثية Genetic Engineering، والتكنولوجيا فائقة الصغر Nano-Technology، والإنسان الآلى Robotics لتؤكد على أهمية وضرورة الوعى بهذه التحديات وكيفية مواجهتها والتعامل معها، فنحن فى زمن يتغير بسرعة - كما لم تتغير الأزمان فى الماضى قط - وعلى المجتمع بجميع مؤسساته وهيئاته ومكوناته أن يغير من نفسه تغييراً هائلا حتى يواجه الوضع الجديد. ومن أجل هذا ينبغى ألا يكون التغير مجرد حقيقة نسلم بها ولكن ينبغى أن يكون منهجاً يوجهنا لمعالجة قضايانا فى

الحاضر والمستقبل كضرورة تقتضيها متغيرات العصر والعلاقات الدولية الجديدة في هذا العالم الذى يتغير بسرعة مذهلة.

ومن الواضح أن ذلك التغير السريع الذى يشهده الحاضر ما هو إلا مقدمة لتطور أسرع وأشمل ينتظر عالم المستقبل حيث ستقوم الآلات والعقول الإلكترونية بالأعمال الروتينية وتترك للإنسان الأعمال الابتكارية والإبداعية.. فما يشهده العالم اليوم ما هو إلا جملة من التغيرات والتحديات المحلية والإقليمية والعالمية المتشابكة والمركبة والتى تؤثر على الحياة فى كافة مناحيها، وعلى الواقع المحلى ومتطلباته فى النهضة والتقدم.. ولعل أهم هذه التحديات الانفجار السكانى Demographic Explosion وتلوث البيئة Environment Pollution، وتنظيم الوقت Time Management، والعنف والتطرف والإدمان، والعولمة وزيادة النفوذ الدولى على القرار الوطنى، وتفكك الروابط الأسرية، وتفكك الروابط السياسية Fracturing of Political Ties، والتنمية والمنافسة الاقتصادية، والبطالة، وتزايد دور المؤسسات والشركات متعددة الجنسيات أو متعدية الجنسيات Multi-National or Super National Corporations، والتغير فى مفاهيم الحرب والإرهاب وثقافة السلام The Changing Face of War, Terrorism and Culture of Peace، والاهتمام بالمرأة كقضية عالمية Gender as a Global Issue، ومواجهة الفقر

المتزايد في العالم Expanding Poverty and Poverty Alleviation، وتطور النظم ووسائل الاتصال والانتقال، والفجوة الرقمية Digital Divide ، والمجتمعات المنتجة للمعرفة Productive Knowledge Societies، والثورة العلمية والتكنولوجية The Science and Technology Revolution، وسيطرة التكنولوجيا على الثقافة والحضارة Technopoly.

الفصل الأول

التقدم العلمى والتكنولوجى

إننا نعيش قرن التكنولوجيا الحيوية والعالم يشهد فى الفترة الحالية طفرة كبيرة جداً لم نشهدها من قبل ولم نفكر فيها على الإطلاق .. يقال مثلاً إن المعارف المتاحة للإنسان فى مجال العلوم الفيزيائية أو الطبيعية الآن تتضاعف مرة كل عشر سنوات، أى أنه كل عشر سنوات تتضاعف المعلومة المتاحة فى مجال العلوم الفيزيائية، فى حين أنها كانت فى الماضى تستغرق فترة تتراوح بين ثلاثة أو أربعة قرون، وإن التغيرات التى حدثت فى الخمسين عاماً الأخيرة تفوق كثيراً ما حدث فى خمسين قرناً من الزمان فيما سبقها .. وإذا كانت الثورة الزراعية قد استغرقت أكثر من ثمانية آلاف سنة، فإن الثورة الصناعية لم تستغرق إلا أقل من ثلاثمائة سنة، فى حين أننا قد دخلنا ما يسمى بالموجة الثالثة، أو المجتمع ما بعد الصناعى، أو "مجتمع الموجة الثالثة" فى وقت قصير جداً مقارنة بالثورتين السابقتين .. فمجتمع الموجة الثالثة قد بدأ في الولايات المتحدة في منتصف خمسينيات القرن الماضى وقبل اكتمال ذلك القرن تشكلت معالمه إلى حد كبير وتعاقبت تطوراته بشكل غير مسبوق في الاكتشافات العلمية، وفي التفجر المعرفي، وفي ثورة الاتصالات الفائقة التى تعتمد على الإنترنت والأقمار الصناعية وفى

عصر السماوات المفتوحة، وفي الجديد الذى يفاجئنا بـه العلمـاء كـل يوم فى شتى المجالات.

وفى الثورات السابقة كنا نتحدث عن أنظمة ثابتة ونتعامل مع مؤسسـات نسـتطيع أن نحـددها بدقـة ونسـتطيع أن نتعـرف علـى مكوناتها واتجاهاتها وأساليب عملها، لأنها كانت تتميـز بالثبـات وبالاستمرارية وقتاً طويلاً، وببساطة أو سهولة القوانين التي كانـت تحكمها. أمَّا مـع بدايـة الألفيـة الثالثـة ومجتمع الموجـة الثالثـة، فنحن نتعامـل مـع نظـام جديـد يتميـز بالسـرعة الفائقـة، وبإنتـاج كثيف المعرفة، تلعب فيه التكنولوجيا دوراً حاكماً في تحديد مصـير البشرية، وتنتج الأنظمة والمؤسسات الاقتصادية والإنتاجيـة أفكـاراً ومبـادئ بـدلاً مـن سلعٍ وآلات، وتلعـب فيـه الحقيقـة الاعتباريـة والذكاء الاصطناعي دورا كانت تقوم به المؤسسات أو الأنظمة الثابتة والذكاء الإنساني فقط. إذن نحن نتعامل مع عـالم جديـد لـه قواعـده وآلياته ومقوماته، ولكى نتعرف علـى بعـض ملامـح هـذا المجتمـع يكفي أننا نقترب من مجتمـع عـالمي زالـت فيـه الحـدود والحـواجز سواء الحدود الجغرافية أو الحواجز الجمركية أو الأسوار – السـور الحديدي وسور بـرلين – أو الحـدود الوطنيـة فـى بعـض الأحيـان، وأصبح العالم كله قرية كونية صغيرة يتنافس فيها كـل أهـل الأرض على سوق عالمية واحدة أصبحت فيها مقومـات الإنتـاج التقليديـة – الأرض، والمواد الخام، والعمالة، والنقد – عوامل متآكلة فبـدلاً مـن

النقد أصبح العلم والمعرفة هما المكون الأساسي للإنتاج... العلم بديلاً عن النقد... أصبح الإنترنت بديلاً عن الكمبيوتر... أصبح المستهلك هو الأساس بدلاً من المنتج... أصبحت الصين بدلا من اليابان بؤرة اهتمام العالم في السنوات الأخيرة.. وأصبحنا نتكلم عن طاقة انفراغ أو طاقة الفضاء بديلاً عن الطاقة التى تنتج من البترول أي باطن الأرض أو طاقة الرياح.. أصبحنا نتكلم عن التكنولوجيا فائقة الصغر والكيمياء الإحصائية، والبيولوجيا الإحصائية والآلات الروحية "Spiritual Machines"، والمعلوماتية البيولوجية "Bio Informatics"، وأحدث هذا ثورة حقيقية فى الإنتاج وفى الصناعة.

ونحن فى بداية الألفية الثالثة تتزايد فرص الإنتاج كثيف المعرفة.. إنتاج السرعة.. إنتاج مُفَصَّل لرغبات نوعية معينة من المستهلكين.. فأصبح من المقدر أن تتزايد نسبة إحلال الآلات المتقدمة والتكنولوجيا الحديثة محل العمال. وبدأت هذه الظاهرة تقلق عدداً كبيراً جداً من المفكرين فى مناطق مختلفة من العالم، وفى تقدير عدد كبير من المختصين منهم.. فمثلاً "روبرت رايخ" الذى كان وزيراً للعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية يقول: إن جزءاً كبيراً من المجتمع الأمريكي وخصوصاً غير الحاصلين على مؤهلات جامعية فقدوا فرص العمل، وإن نسبة البطالة لمن لم يحصل على شهادة جامعية تبلغ ضعف نسبتها فيمن حصل على هذه الشهادة.

وبدأت هذه الظاهرة تؤدى إلى شرخ اجتماعى فى الولايات المتحدة لأنه من الملاحظ أن نسبة السود الحاصلين على شهادة جامعية أقل من البيض، فبدأت البطالة تزداد فى قطاع معين من المجتمع وأصبحت تأخذ شكلاً عنصرياً وذلك يشكل وضعاً قد يمس دولاً أخرى فى المستقبل القريب.

إن الاكتشافات العلمية التى حدثت فى السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين تعادل تلك الاكتشافات التى تمت فى السنوات الخمسين التى سبقتها، وأصبح الفاصل الزمنى بين الاكتشاف وتطبيقه العملى ونتائجه الاقتصادية والصناعية يتضاءل سنة بعد الأخرى. وهذا يعنى أن هناك تحدياً كبيراً، هذا التحدى يحمل بين طياته تهديداً لمن لا يستطيعون اللحاق بهذا السباق، فإذا فكرنا فقط فيما هو قائم حالياً وكيفية إصلاح بعض الجوانب هنا وهناك بنظرة ضيقة أو مرحلية محدودة، تتوقف على الموارد والإمكانيات المتاحة فلن نستطيع أن نلحق بركب التقدم، لأننا مطالبون بأن نتابع ليس فقط التطورات التى تحدث ولكننا فى حاجة إلى تغيير أسلوب التفكير أيضاً الذى يؤهلنا إلى التعامل مع علوم المستقبل.

فنحن نعيش فى عالم لا مجال فيه للضعفاء ولا أمل فيه للجهلاء، ولا نملك إلا أن نأخذ بمعايير العالم الذى نعيش فيه.. لابد أن نكون أقوياء ووسيلتنا هى العلم، فالعلم

والمعرفة أصبحا يشكلان قوة العالم الجديد، ولا قبل لأحد أن يقابل هذا التقدم العلمى بأى كثرة عددية، فإلى وقت قريب كانت توجد مرحلة يمكن أن نستفيد فيها من العمالة الزائدة لدينا وكان يمكن استعمال تكنولوجيا بسيطة ولكن التقدم الرهيب الذى حدث فى الدول المتقدمة جعل من المستحيل لأى تكنولوجيا متدنية أن تدخل المنافسة العالمية. وعلى سبيل المثال، وكما أوضحنا من قبل فإن المنافسة فى صناعة السيارات بين اليابان وأوروبا وأمريكا حُسمت فى ثمانينيات القرن الماضى لصالح اليابان حيث استطاعوا أن يختصروا تكلفة إنتاج موديل جديد من السيارات إلى الثلث وزمن الإنتاج إلى الربع فحُسمت المنافسة نهائياً لصالح اليابان[1].

وقد نالت الحروب أيضا نصيبها من التقدم العلمى والتكنولوجى، فالحرب اليوم أصبحت حرباً تكنولوجية فجيش مصر، الذى انتصر فى حرب أكتوبر كان انتصاره أمراً طبيعياً ولم يكن ضربة حظ ولا مفاجأة قدر، وإنما كان نتيجة علمية ومنطقية لجهد بذل.. لتخطيط سليم.. لتدريب شاق.. لعلم تم الاستفادة منه إلى أقصى حد.. لإرادة التغيير التى سيطرت على قلوب وعقول المصريين.. لإيمان هذا الجيش بربه ودينه ووطنه.. إن الفارق بين الجيش الذى انتصر فى أكتوبر والجيش الذى انهزم فى ١٩٦٧ أنه

١- الدكتور حسين كامل بهاء الدين: الوطنية فى عالم بلا هوية.

كان جيشاً متعلماً، جيشاً مؤسساً بجنود المؤهلات ولذلك استوعب تكنولوجيا العصر واستطاع أن يخوض أول حرب إلكترونية فى التاريخ الحديث.. استطاع أن يستعمل التكنولوجيا المتطورة وأن يضيف إليها .. جيشاً استطاع أن يطور الأسلحة التى بحوزته حيث لم يكن من المخطط فى الدول المصنعة لها أن يتم استخدام تلك الأسلحة فيما استعملت من أجله. لقد كان العلم سلاح هذا الجيش.. كان العلم قوة أساسية في نصر أكتوبر.. وفى حرب الخليج أيضاً حُسمت نتائج المعركة على شاشات الكمبيوتر قبل أن تُحسم على أرض المعركة.

إن الحرب الحديثة أصبحت حرباً علمية صرفة لا مجال فيها للمزايدات ولا للعنتريات فهى محصلة حقيقية لقدرة الشعب العلمية، حيث إن أى دولة اليوم فى مجال الدفاع لا تواجه جيشاً وإنما تواجه شبحاً.. ولا تقابل عدواً وإنما تقابل رمزاً.. ولا تحارب فى ميدان معركة محدد وإنما تحارب فى أجواء اعتبارية لا يعرف الكثيرون مداها ولا يقدر تبعاتها إلا العارفون بها. فلقد استطاع العلماء باستعمال التكنولوجيا الحيوية أن ينتجوا مواداً أو أجهزة تستطيع أن تؤثر على الجيش المعادى فى ميدان المعركة دون أن تصيب فرداً واحداً من الجيش الذى يستعمل هذا السلاح، أى أن هناك معركة حديثة تنتهي دون قتال.. نصر دون حرب.. بل

استطاعوا أن ينتجوا موادَّ تسيطر على إرادة وتصرف الجيوش المقاتلة دون طلقة رصاصة.. اليوم تنطلق الصواريخ موجهة بالليزر من قواعد على بعد آلاف الأميال وتصيب أهدافاً لا يدرى من فيها ماذا سيحدث لهم بعد دقائق.. الجيوش تقابل أخطار أسلحة بيولوجية وأسلحة كهرومغناطيسية تدمر البشر ولا تمس الأسلحة.. تسيطر على الإرادة دون قتل أو إبادة.. تتحكم في العقول وتؤثر على التصرفات والمعنويات.. تتعرف على أخبار هذه الجيوش بلا بشر يتسلل وبلا جاسوس يتواجد.. فالزمن الآن زمن الاستشعار عن بعد وأدوات الاتصال فائقة الصغر "النمل الجاسوس" و"البكتيريا الجاسوس".. زمن اللامعقول!!

الفصل الثانى

مثلث الرعب "G.N.R"
والتزاوج بين العقل البشرى
والعقول الإلكترونية

اليوم هناك منظومة جديدة فى أسلحة الدمار الشامل، وفى معايير القوة، وذلك فيما يسمى "مثلث الرعب الجديد"، وبينما كانت الطاقة النووية والأسلحة الكيميائية والأسلحة البيولوجية هى أسلحة الدمار الشامل للقرن العشرين برز لنا شبح مخيف، هو تلك الثلاثية المخيفة الجديدة وهى الهندسة الوراثية والتكنولوجيا فائقة الصغر والإنسان الآلى Genetic Engineering – Nano Technology – Robotics التى يطلق عليها العلماء الـ "GNR". وهذه المنظومة تمثل طاقات هائلة للبناء والتقدم وتشكل فى نفس الوقت أدوات وأسلحة للدمار الشامل التى يستعد العالم اليوم لشن حرب جديدة من أجل القضاء عليها.

إن ذلك الثلاثى المرعب "GNR" بتزاوجه وتطوره يشكل خطراً يجب أن ندرس باهتمام آثاره المحتملة خاصة أن هذه الاكتشافات الجديدة تتميز أولاً بقابليتها للتكاثر الذاتى بعيداً عن إرادة الإنسان.. وثانياً تلك الاكتشافات لا تستلزم بالضرورة ثروات هائلة أو موارد نادرة والمعلومات والموارد اللازمة لإنتاجها ليست حكراً

للدول الكبرى، بل إنها يمكن أن تكون فى متناول دول نامية أو أقليات أو أفراد.. وثالثاً لا يوجد حد فاصل بين استعمالات هذه التكنولوجيات تجارياً أو حربياً ولا يمكن تحديد خط واضح فى هذا الشأن. كما أن التعقيد الشديد المصاحب لهذه التكنولوجيات والذى يخرج عن دائرة قدرة الإنسان على إجراء حساباتها أو التحكم الكامل فى مجرياتها قد تضعنا أمام احتمالين أحلاهما مر:

الاحتمال الأول: أنه فى إطار التطور الطبيعى فإن البشر سيوكلون للآلات الذكية أو الإنسان الآلى والتكنولوجيا فائقة الصغر إدارة وضبط معظم الأنشطة على أرض هذا الكون.. فإذا ما احتفظ الإنسان بقدرته على التدخل فإن معنى هذا أن تكون هناك قلة متميزة Technocracy تملك من العلم والتخصص والقدرات النادرة ما يمكنها من التحكم والتدخل فى عمل هذه المنظومة من الآلات الذكية، وبالتالى ستملك قدرة تحكم هائلة فى بقية البشر .. فإذا كانت هذه القلة تحكمها اعتبارات إنسانية فستعمل على إطعام وإسكان وإدارة بقية الجنس البشرى مع ضمان التحكم فى عواطفهم وانفعالاتهم وأنشطتهم بحيث لا يشكلون خطراً أو مصدراً للقلق أو المضايقة للقلة المتميزة، أما إذا كانت الاعتبارات الإنسانية ليست صفة مميزة للقلة الحاكمة فإنها قد تفكر فى

التخلص من الكثرة التى قد تعتبرها مصدر إزعاج أو حملاً ثقيلاً يجب التخفف منه.

الاحتمال الثانى: أن توكل البشرية إدارة أمورها بالكامل إلى تلك المنظومة المرعبة دون قدرة منها على التدخل وذلك بسبب التعقيد الشديد للعمليات المطلوبة والسرعة البالغة التى لا يستطيع الإنسان أن يجاريها وهنا يصبح الجنس البشرى كله تحت رحمة الثلاثى المرعب.

إن هذه المنظومة تشكل طاقة هائلة للتقدم والبناء والعلاج وحل مشاكل كثيرة للمجتمعات، ولكنها فى الوقت نفسه تمثل تهديداً خطيراً للبشرية وللحياة على هذا الكوكب إذا ما أُسئ استغلالها.. لذا فالسيناريوهات المحتملة لا يمكن التكهن بخطورتها .. لقد أصبح العالم يتحدث عن نسخ محتويات العقل البشرى على الكمبيوتر، وتكنولوجيا استبدال وتخليق الأعضاء، والتزاوج بين الإنسان والكمبيوتر. هذا التقدم العلمى الهائل الذى حدث فى السنوات الأخيرة يضمن مكتشفات علمية كبرى من أهمها التقدم الهائل فى الهندسة الوراثية وهذا التقدم مبنى على فكرة بسيطة وهى "المشرط البيولوجى" وهو عبارة عن إنزيم تقصير أو تقييد Restriction Enzyme .. وهذا الإنزيم يعمل كمشرط بيولوجى يقتطع جزءاً أو طولاً بسيطاً من مادة الـ DNA (الشفرة الوراثية) الموجودة فى الجينات، ويقتطع جزءاً آخر من البلازميد الموجود فى

البكتيريا وهو عبارة عن سلسلة قصيرة من الـ DNA، ويعيد لصقهم ببعض ثم يستخدم هذا الهجين في نقل الصفات الوراثيـة إلى حامـل بكتيرى. وهذا التكاثر الجديد الذى سيحدث فى البكتيريـا سـيكون لـه الصفات الوراثيـة للـ DNA الـذى تم نقلـه وبالتـالى يغـير مـن الصفات الوراثية للبكتيريا وتبدأ فى إنتاج كائنات أو أنسجة لم تكن موجودة من قبل.

إن القرن الذى نعيشــه هــو بحــق قــرن التكنولوجيــا الحيوية.. تميز التقدم فيه أيضاً بــالتزاوج بــين الحاســبات والتكنولوجيا الحيوية وامـتلاك عـدة دول لقاعـدة بيانـــات بيولوجية هائلة وعن طريق هذه الاكتشافات والتكنولوجيـــات بدأت الهندسة الوراثيــة تلعــب دورا كبيــرا فــى مختلــف المجــالات الزراعيــة والصناعية والطبية.. وعلــى ســبيل المثال استطعنا بالعلم والمعرفة عن طريق هــذه التكنولوجيــا تنمية الإنتاج الزراعى ومضاعفة حجم المحاصيل واســتنباط وتنمية أنواع جديدة.. ومن ناحية أخرى خارج إطار الزراعة استطاع العلماء أن يحثوا أو يغروا خلايا نبات القطن للتكــاثر فى محلول كيميائى معقم Sterile فى معامل بكتيرية وبــذلك ينتجون قطنا خالياً من الميكروبات يســتعمل فــى الأغــراض الطبية بلا مزارع ولا زراع.. قطن بــلا أشــجار، ولأن هــذه

المعامل ليست معرضة للعوامل البيئية المختلفة يمكن الـتحكم فى إنتاج القطن بكميات كبيرة.

واستطاع العلمـاء دفـع أو إغـراء حويصـلات البرتقـال والمـوالح للتكاثر معمليا فى أوان كبيرة أو وعاء ضخم، وبالتالى يقومون بإنتاج عصائر هـذا البرتقـال أو المـوالح بكميـات تجاريـة دون الحاجـة إلى زراعة البرتقال.. عصير بلا مزارع ولا برتقال. وأنتج العلمـاء أيضـا بكتيريا قادرة على إنتـاج مـادة البلاسـتيك وهـذا البلاسـتيك المنـتج صديق للبيئة ويمكن إعـادة تـدويره، واستطـاعوا أيضـاً أن يحولـوا مـزارع نبـات الخـردل ومـزارع الـدخان إلى مصـانع لإنتـاج مـادة البلاستيك عن طريق التكنولوجيا الحيوية.

واستطاع العلماء عـن طريـق الهندسـة الوراثيـة أن يستخدموا ميكروبـات اسـمها Ecoli لتحويـل المخلفـات الزراعية والمخلفات الصلبة للصرف الصحى وعـادم الـورق إلى كحـول أى تحويـل المخلفـات إلـى مصـدر للطاقـة.. واستطاعوا أن يحولوا ميكروبات وبكتيريا وفطريات وطحالب إلى مصفاة أو نظـام امتصـاص واسـتخدامها فـى تنقيـة المحيطات من النفايات التى تحدث نتيجـة غـرق سـفينة أو نتيجة تسرب منتجات معينة من حاملات للبتـرول أو غيـره وكذلك للتعامل مع المواد النووية والفلزات السامة، وإذا أخذنا فى الاعتبار أن فى الولايات المتحـدة وحـدها تبلـغ تكلفـة

التخلص من هذه النفايات ١,٧ تريليون دولار لأدركنا قيمة هذا الاكتشاف.

لقد أخذت الشركات والاحتكارات الكبرى فى عديد من الدول المتقدمة رحلة مجانية على ظهر تراث إنسانى لآلاف السنين، فمثلاً شجرة النيم Neem الهندية التى تعتبر شجرة شبه مقدسة ولها خواص ضد البكتيريا وضد الفطريات وضد الحشرات تضارع أو تفوق مضادات الحشرات Insecticides أو الفطريات الكيميائية مثل الـ DDT وليس لها نفس الآثار الضارة، كما تستعمل لعلاج الكثير من الأمراض، ولها فوائد زراعية متنوعة.. وقد استخلص العلماء منها المادة الفعالة أو الجين الخاص بها وبدأوا إنتاجها معملياً وأطلقوا عليها اسم أزاديراكتين Azadiractin. وهكذا أصبحت الخبرة الوطنية والتراث الإنسانى لمئات من الأجيال مجرد براءة اختراع للملكية الفكرية تحتكرها دولة أو مؤسسة عملاقة وتجنى من ورائها البلايين من الدولارات.

وللتكنولوجيا الحيوية أثر كبير فى الطب حيث استطاع العلماء أن يحدثوا انقلاباً فى موضوع نقل الأعضاء فبدلا من أن ننقل الأعضاء من متبرع إلى إنسان جديد.. دخلنا فى اتجاهين جديدين:

الاتجاه الأول: هو إدخال جينات بشرية إلى أجنة حيوانية، حيث إن إدخال الجينات إلى الأجنة الحيوانية سيجعل قابلية

رفض الإنسان للأعضاء المنقولة من هذه الحيوانات أقل بكثير مما كانت عليه، فالإنسان لن يرفض أنسجته لأن الصفات الوراثية أو الصفات الإنسانية ستكون موجودة فى الأعضاء المنقولة، فتكون قابليتها للرفض قليلة، وبمقتضى هذا تصبح هذه الحيوانات معامل إنتاج لقطع غيار بشرية مختلفة.

الاتجاه الآخر: هو أن العلماء استطاعوا عن طريق الهندسة الوراثية أيضا أن يجعلوا الخلايا تنمو وتتكاثر فى بيئة معملية.. فمثلا نستطيع أن نأخذ خلايا من الجلد ونقوم بعمل أمتار منه وذلك بوضع هذه الخلايا فى محاليل كيميائية ومؤثرات معينة تدفعها إلى التكاثر. فإذا أصيب شخص فى حرب أو فقد جزءاً من جلده نستطيع أن نستبدله بقطعة من الجلد المصنع.

كما أصبح من الممكن تخليق أعضاء جديدة للإنسان بدءاً من الجلد - كما سبق أن أوضحنا - ومروراً بالمثانة والعظام ومعظم الأعضاء الأساسية فى جسم الإنسان عن طريق الذكاء الصناعى والسوبر كمبيوتر وعن طريق ما يسمى بالتصميم القائم على الكمبيوتر والإنتاج القائم على الكمبيوتر Computer Aided Design and Computer Aided Manufacture حيث نستطيع أن نقوم بعمل هيكل ثلاثى الأبعاد من مادة بلاستيكية للعضو المراد تخليقه.. ونضع الخلايا البشرية من عضو معين على هذا

الهيكل وندفعها إلى التكاثر فتبدأ فـى أخـذ الشـكل النهـائى للعضو الذى صمم بواسطة الكمبيوتر ويحدث هنا تطور فـى اتجاهين مختلفين حيث تنمو الخلايا البشرية وتبدأ فى اتخـاذ شكل الهيكل الموجود.. وفى نفس الوقـت يبـدأ البلاسـتيك الموجود فى هذا الهيكل فى التآكل حتى يختفى، وفى النهايـة نحصل على عضو مشابه تماما للعضو المراد نقله من خلايـا بشرية من نفس الشخص أو من شخص آخر متجانس معـه جينياً.

وهناك اتجاه آخر وهـو حفـظ الخلايـا الجذعيـة Stem Cells الموجودة فى الحبل السُرى ثم تخزينها إلى وقت الحاجة حتـى يـتم إثارتها أو دفعها فى وقـت لاحـق لتنـتج خلايـا متخصصـة لأى مـن أجهزة الجسم التى تحتاج إلى قطع غيار.

لقد شكلت هذه التكنولوجيات الجديدة فى نقـل الأعضـاء ثورة طبية هائلة واستطاعت أن تتغلب على مشـاكل رفـض الأعضاء وعدم التوافق بين فصيلة المتبرع والمنقـول إليـه، وأصبحت تشكل رصيداً ضخماً من الإمكانيـات فكـل إنسـان يستطيع أن يُخلِّق لنفسه قطع غيار "Spare Parts".. وبدأ البعض فى حماسه وجموحه فى هذا المجال يفكر فـى قصـة الخلود وبدأ يفكر فى أن ينقل كل أنواع المعرفـة الموجـودة داخل المخ البشرى إلى أجهزة كمبيوتر، وبتزاوج هذا مع قطع

الغيار البشرية فإن الإنسان يمكن طبقاً لهذا التصور أن يعيش لسنين طويلة تفوق بمراحل متوسط عمر الإنسان حالياً.

وفى مجال الطب فقد اخترع العلماء شريحة من الـ DNA تستطيع أن تقوم بعمل مسح للتركيب الوراثى للإنسان.. وذلك بأخذ عينة جينية ومطابقتها مع الشريحة الجينية المرجعية التى يوجد بها كافة الجينات فتعطى التركيب الجينى ومنه نستطيع أن نقوم بنوع من التنبؤ العلمى بالأمراض التى قد يتعرض لها هذا الشخص أو بالاتجاهات الصحية المحتملة لديه.. شريحة أو رقيقة جينية تستخدم للتطابق أو لتشخيص وتحديد التركيب الجينى للمريض أو للإنسان المختبر.. أى نقوم بوضع المادة الجينية على الشريحة لنرى التطابق بين الجينات الموجودة فتظهر التركيبة الجينية على الفور.. فالجينوم البشرى الذى كان مقدرا له مائة ألف جين اكتمل اليوم واتضح أنه يقل عن ٤٠ ألف جين، وأغلب هذه الجينات أصبحت ملكية فكرية واحتكاراً لشركات ومؤسسات عالمية ودول، وإذا كنا قد شاهدنا فى القرن السادس عشر بداية لتحويل الأرض المشاع أو الملكية العامة إلى ملكية خاصة أو احتكارات وذلك بظهور قانون "Enclosure Act" فى إنجلترا فى القرن الـ١٦ والذى يرسم حدوداً ويضع أسواراً لهذه الأراضى ويمنع الانتفاع بها والاستعمال العام لها، فالآن نشهد فى القرن الحادى والعشرين نوعا

آخر من التطويق أو السياج **Enclosure** ولكــن فــى هــذه المرة على الشفرة الوراثية والتاريخ الإنجابى للإنسان وعلــى إمكانات التقدم.

وهكذا تمكن العلماء من تحديد الجينات المسئولة عن المرض، وطول العمر، والسلوك النفسى، والاتجاهات المستقبلية للإنسان، وانتقلنا إلى مرحلة جديدة من العبودية.. من مرحلة الاسترقاق وامتلاك العبيد إلى مرحلة امتلاك الشفرة الوراثية، والتحكم فى الأجيال القادمة واحتكار مستقبل السلالة البشرية، ونسخ العقل البشرى كله على الكمبيوتر. وفى إطار ذلك يمكن توجيه أو إنتاج أسلحة تستخدم جينات شعوب بذاتها أو فصيلة عرقية معينة أو مجموعة من الأفراد لهم مواصفات جينية خاصة.. كما استطاعوا أن ينتجوا أسلحة بيولوجية تؤثر على سلوك الإنسان وميوله كما تستطيع أن تسيطر على إرادته وأن تصيب جنساً معيناً أو شريحة عرقية معينة من البشر دون آخرين، احتمالات خطيرة وكلها تشكل تحديات لنا ولغيرنا.

وللتقدم المذهل فى التكنولوجيا الحيوية أثره على البيئة من حيث وجود سلالات جديدة من البكتيريا والفيروسات المعالجة جينياً، وقد فتح هذا باب الأمل أمام كثير من التطورات والتقدم الزراعى والصناعى ولكنه أيضاً وضعنا فى مواجهة احتمالات رهيبة نتيجة لتدخل الإنسان فى التوازن البيئى والجينى، وما قد ينتج

عن ذلك من آثـار خطـيرة مثـل الأوبئـة أو التلـوث البيئـى والتسـمم ونقص المناعة عند الإنسان والحيوان والنبات أو التكاثر غير المنضبط لسـلالات جديـدة لا يعلـم إلا الله تأثيرهـا علـى البشـر والثـروة الحيوانية والنباتية بل على الكرة الأرضية ذاتها.

التزاوج بين العقل البشرى والعقول الإلكترونية

واليوم استطاع العلماء أن يحققوا نوعاً من التزاوج بين الكمبيوتر والعقل البشرى على أجهزة كمبيوتر متطورة، وإذا ما دخلنا فى هذه العملية من التفاعل بين التنمية الهائلة والشاملة لإمكانات العقل البشرى فضلاً عن التطور الهائل فى الهندسة الوراثية والتقدم المذهل فى الإنسان الآلى والتحكم عن بعد، والتقدم الكبير فى التكنولوجيا فائقة الصغر، فنحن فى إطار منظومة جديدة تشكل نقلة نوعية فى قدرات الجنس البشرى.. ثورة جديدة فى آفاقها كنا لا نستطيع مجرد تخيلها ولكنها اليوم حقائق علمية تثبت على أرض الواقع. هذا الوضع العلمى والمعرفى تطور بشكل خطير وأصبح يشكل فجوة جديدة، فنحن إلى وقت قريب كنا نتحدث عن الفجوة بين الشمال والجنوب.. بين الغرب والشرق .. بين الدول الغنية والدول الفقيرة .. أما اليوم نحن نتحدث عن الفجوة الرقمية Digital Divide، وعما قريب سيكون لدينا فجوة أخطر اسمها الفجوة الكمية Quantum Divide.. والفجوة الرقمية هى الفجوة بين المجتمعات والأفراد الذين يستخدمون بكفاءة وفعالية تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وبين المجتمعات والأفراد الذين لا يستخدمون هذه التكنولوجيا. وهناك من العلماء من يقول إن الفرق بين

الواقفين على ضفتى هذه الفجوة كالفرق بين الإنسان البدائى واينشتاين وإن الفرق بين الواقفين علــى ضــفتى "الفجــوة الكمية" كالفرق بين "بمب الأطفال" و"القنبلــة الهيدروجينيــة". والمسلمات التى كنا نتكلم عنها إلى وقت قريب اليــوم تتغيــر أمامنا بشكل غير مسبوق. فاليوم أثبــت العلمــاء أن هنــاك سرعة تفوق سرعة الضوء وهو ما صوره الخيال العلمى فى فيلم Time Machine، إذ أن من الحقائق العلمية أنــه إذا تجاوزنا سرعة الضوء نستطيع أن نسبح فى الــزمن ذهابــاً وإياباً!!

واليوم أصبحت أعقد المسائل التى كانت تشغل بال علماء الرياضيات والطبيعة تحل فى ثوان بواسطة الكمبيوترات العملاقة، أصبحت الكمبيوترات العملاقة والكمبيوترات الكميــة Quantum Computers والتى تعتمد على الذرات والتــى بإمكانهــا أن تعــالج تريليونات من الاحتمالات فى جزء من الثانية تستطيع أن تتعامـل مع ما كان يسمى بالفوضى "Chaos"، والتى كانت تستعصى علـى التحليـل العلمـى، لأن عملياتهـا المعقـدة كانـت مـن الضـخامة ومـن التعقيـد بحيـث أن قـدرات الإنسـان العقليـة العاديـة والحسـابية وقدرات الكمبيوترات التى كانـت توجـد إلى وقـت قريـب كانـت لا تستطيع حسابها أو تحليلـها، وهـذه الفوضـى اتضـح أن لهـا نظامـاً يحكمها حيث إن أكثر النظم الفوضوية الآن قابلـة للتحليـل وقابلـة

للحساب بشرط توافر الكمبيوترات العملاقة التى تصلح لهذه المهمة. وقد تمكن فعلاً العالم ستيفان جولد Stephan Gulde وزملاؤه من جامعة انزبروك "Innsbruck" من بناء نموذج أولى لكمبيوتر كمى الجزء الفعال فيه هو ذرة من الكالسيوم، وبتزواج تكنولوجيات حديثة تتضمن استعمال نوع معين من الليزر "Titanium Sapphire Laser" واستطاعوا أن يحلوا أول مسألة رياضية بهذا الكمبيوتر مما يفتح الباب أمام تقدم أكبر فى المرحلة القادمة.

ويشير قانون مور Moore's Law إلى أن قدرات الكمبيوتر وقدرة الترانزيستور أو الدوائر المتكاملة Integrated Circuits تتزايد مرة كل ١٨ شهراً أو كل ٢٤ شهراً، وعلى سبيل المثال فإن حجم الشريحة المستعملة فى شركة Intel - والتى تعتبر كبرى شركات إنتاج هذه الدوائر المتكاملة - سنة ١٩٧٢ كانت ٣٥٠٠ ترانزيستور، ووصلت سنة ١٩٩٧ إلى ٧,٥ مليون ترانزيستور. وكان من المقرر - بسبب الحواجز المكانية - أن يتوقف العمل بهذا القانون حتى سنة ٢٠١٠ أو ٢٠١٥ حيث كان ذلك التزايد تحدده المساحة المتاحة فى الشرائح الموجودة عليها الترانزيستورات أو الدوائر المتكاملة، ولكن اختلف الأمر مع وجود تكنولوجيا جديدة يطلقون عليها علم الإلكترونيات الجزيئية Molecular Electronics، حيث أصبحت الجزيئيات بديلاً عن

الترانزيستورات، وأصبح أمامنا ٣٠ أو٤٠ عاماً أخرى من نفس معدل الزيادة في قدرة الحاسبات الإلكترونية. وبالتالى فإن قانون مور سيمتد إلى ما بعد عام ٢٠٣٠ فى إطار هذا التقدم. وفى إطار هذه التطورات فإنه فى سنة٢٠١٠ سيكون هناك كمبيوتر له نفس مستوى الذكاء البشرى، وفى عام ٢٠٣٠ سيكون هناك كمبيوتر ذكاؤه يعادل ذكاء ١٠٠٠ إنسان، وبمضى منتصف القرن سيكون هناك شرائح تزرع فى المخ البشرى وتعطى إمكانات هائلة فى النظر والسمع والذاكرة والذكاء بحيث يصعب على من يفتقدها أن يدير حواراً مفهوماً مع من يمتلكها، وبحلول نهاية القرن سيكون هناك تزاوج شبه كامل بين السوبر كمبيوتر والإنسان.. والإنسان الآلى والإنسان، وتتلاشى كثير من الفروق التى تفصل بينهم الآن. وسيصبح فى الإمكان أن يحدث التقاء الإنسان بالإنسان وبالإنسان الآلى عبر الزمان والمكان بالسمع والبصر والإحساس والعاطفة. ومما لا شك فيه أن ذلك كله يضع عبئاً ضخماً على الدول النامية التى يجب أن تبنى نفسها ويجب أن تلحق بغيرها. وهكذا فليس أمامنا الآن إلا أن نسابق الزمن ونلاحق التقدم، فلا مكان فى هذا العالم الجديد إلا للأقوياء ولمن يملكون المعرفة والعلم.

الجزء الثانى

الاقتصاد الحر
وسقوط الشرعية الدولية

- الاقتصاد الحر فى ظل العولمة
- انهيار الحواجز الجغرافية والوطنية أمام زحف العولمة
- تراجع الوازع الأخلاقى وسيادة القيم المادية
- منطق القوة وزوال الحاجة إلى تبرير استعمالها

الفصل الأول

الاقتصاد الحر في ظل العولمة

لقد حدث تطور كبير في مفاهيم الاقتصاد – خاصة في الغرب – وتذبذب هذا المفهوم خلال القرن العشرين بين اقتصاد الدولة الذى يعتمد على أسلوب التخطيط المركزى وبين ترك الأمور كلية إلى آليات السوق وكان لكلٍ تجارب ناجحة على امتداد القرن العشرين.

والاقتصاد الحر لا شك أنه أفضل النظم الاقتصادية التى تؤدى إلى التنمية السريعة وإطلاق المبادرات الفردية وتنمية الإبداع، كما أن الديمقراطية كنظام سياسى واجتماعى هى أفضل وأعدل النظم بالنسبة للإنسان والمجتمع.. فالديمقراطية محرك أساسى للإبداع والتقدم. إنما لكلا النظامين ضمانات لابد من توافرها وثغرات لابد من علاجها .. وتتمثل ضمانات الديمقراطية والاقتصاد الحر فى صحافة حرة، وأحزاب سياسية نشطة، ومؤسسة تشريعية يقظة، وقضاء عادل ونزيه، ولقد آن الأوان لكى نستفيد من التجارب التاريخية ومن بعض الممارسات التى شابت العمل الديمقراطى فى بلاد كثيرة ومراحل زمنية مختلفة، وأن نفكر فى ضوابط ومواثيق شرف تحكم عمل هذه المؤسسات الحامية للديمقراطية والضامنة لاستمرار الاقتصاد الحر.. ضوابط محددة تمنع ازدواج المعايير والمصالح أو تعارضها وتحول دون غلبة الهوى، وتقى المجتمع من

شطحات من يخرجون على قواعد الشفافية وتساعد على التجرد من الطمع والجشع والبعد عن غلبة المصالح الشخصية أو الفئوية، وتسمح بالمساءلة فى كل وقت وبتصحيح المجتمع لذاته عند أى تعثر. ولعل التقاليد التى استنّها القضاء المصرى الشامخ فى تطبيق مبدأ الحدود والشبهات وضوابط السلوك الاجتماعى لهيئة القضاء الموقرة ووجود نظام مؤسسى يحاسب القضاة ويمنع الممارسات – اجتماعية كانت أو وظيفية أو مادية – التى يمكن أن تشوه وجه العدالة أو تؤثر على سلامة تطبيق القانون هى من أهم هذه الضمانات. فمبدأ تنحى القاضى عند تعارض مصلحته الشخصية أو ارتباطاته العائلية أو شعوره بالحرج فى نظر دعوة معينة لهو ضمانة حقيقية لنزاهة هذا القضاء.

فالديمقراطية متى كانت فى إطار مؤسسى دقيق يضمن الشفافية ويحقق المساءلة ويُطبق فى كل المؤسسات الحامية لها من صحافة وبرلمان وأحزاب ويضمن حق المواطن فى الحصول على المعلومات وفى التنبيه إلى الانحراف و الفساد أو تعارض المصالح، هو أمر من شأنه أن يجعل من ضمانات الديمقراطية أنظمة وقائية حقيقية للاقتصاد الحر. والقضاء الحر والنزيه ضمانة أساسية لنزاهة الحكم وسلامة الاقتصاد وإشاعة روح العدالة والمساواة والقضاء على بؤر التذمر وإرهاصات الغربة المكانية التى يحس بها من يتعرضون لظلم

بيّن أو اضطهاد شديد، والتى تؤدى إلـــى الهجــرة الزمنيـــة، وتمهد للتطرف والإرهاب. كما أن التأكد مـــن عـــدم وجـــود تعارض فى المصالح الاقتصـــادية Conflict of Interests أو الفئوية فى كل مؤسسات حماية الديمقراطيـــة أمـــر بـــالغ الأهمية.

كما لعبت الصحافة.. الصحافة المتجــردة مـــن الهـــوى المنزهة عن المصالح الشخصية دوراً رئيسياً فى حماية كـــل من المجتمع الديمقراطى واقتصاد السوق.. عن طريق كشـــف الفساد، والتصدى للانحراف، وحماية تكافؤ الفـــرص، ومنـــع الاحتكار. كما كان للصحافة إسهام كبير فى نشـأة أمريكـا الحديثـة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القـرن العشـرين .. ولعـب نفـر مـن هـؤلاء المعـروفين بالمجرسـين Muckrakers دوراً فـى فضـح الممارسات غير السوية وفى تعرية مساوئ المجتمـع الرأسمـالى فـى بدايته وفضح الأحوال السيئة للعمال والخدمات العامة والممارسـات غير الشريفة من رجال الأعمال والتحايل علـى القـوانين مـن بعـض كبـار الاقتصـاديين، وسـاعد هـؤلاء – أيضـاً – إلى حـد كـبير علـى تحجيم الاحتكار والتحايل كمـا أدى ذلـك إلى سيادة قـيم المجتمـع الأمريكى التى بهرت العالم فترة طويلة.

وليس هذا بجديد فلقد كان التجريس أحد الآليات التى تشـكل الثقافة العـربية والمصرية من زمن بعيد على مستوى الدولة ومستوى

القرية بحيث تفضح وتعرى الممارسات غير الأخلاقية وتكشف الفساد والانحراف وتشكل بذلك رادعاً قوياً للآخرين.

ومن ناحية أخرى ففى بلد مثل سنغافورة – وهى بلد تتبع نظام الاقتصاد الحر– تم إنشاء مكتب أو هيئة يستطيع أى مواطن أن يبلغها عن وقائع فساد أو رشوة أو أى جرائم مشابهة مصحوبة بالدليل ولا يُطلب منه تحقيق شخصية أو الإدلاء بشهادة.. وتحال القضايا التى تثبت جديتها إلى القضاء الذى يحكم عادة فى حالة ثبوت وقائع تلك الجرائم بغرامة قد تعادل مجموع ثروته دون حاجة إلى سجنه، مما أدى إلى انخفاض حاد فى معدلات الرشوة والفساد. إن ملاحقة الفساد هو أحد ضمانات المجتمع الديموقراطي وأحد وسائل تأمين الاقتصاد الحر، كما أن دعم الشفافية الكاملة وإتاحة حق الحصول على المعلومات وحق الإبلاغ المدعم بدليل عن جرائم دون أن يتعرض المبلغ لمضايقات أو ملاحقات هى آليات أساسية لحماية المجتمع ودعم السلام الاجتماعى.

هناك ظواهر لا يمكن تجاهلها ويمكن أن تؤثر بل وأثرت فعلاً فى مجتمعات كثيرة على ضمانات الديمقراطية وحرية الصحافة باستقطاب عناصر كثيرة لتحقيق مصالحهم الخاصة أو بإيجاد ارتباطات مادية لهم بالاحتكارات الكبرى والمصالح الرأسمالية.. الأمر الذى أثر على مصداقية الصحافة وحرية

الرأى.. فمثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكيـــة صـــدر كتـــاب حديث اسمه "المنشار الهـــزاز" "**Into the Buzzsaw**" أو "خرافة الصحافة الحـــرة" فـــى أمريكـــا للكاتبـــة "كريســـتينا بورجيسون" **Kristina Borjesson** يتحدث فيـــه ١٨ مـــن كبار الكتاب وكبار رجال الصحافة عن تجاربهم المريرة فـــى تضليل الرأى العام والتعتيم على معلومات خطيرة وأساســية تمس المجتمع بل وتحويرها فى بعض الأحيان. وعلى الجانب الآخر فإن الضمانات البرلمانية يمكن أيضاً أن تخضع لتأثيرات سلبية تؤثر على كفاءتها فى حماية الديمقراطية. وكما حـــدث فى كثير من الدول ومنها أمريكا فلقد حـــدثت ممارســـات أدت إلى تورط أعداد من أعضاء هذه المجـــالس ومنهـــا مجلـــس الشعب المصرى فى تصرفات سلبية. ويكفـــى أن نســـتعرض عدد الذين أدانتهم المحاكم والذين شملتهم التحقيقات والـــذين تناولتهم الإشاعات والذين أسقطهم الرأى العام من احترامـــه فى كثير من الأحيان. وبنفس القدر فى كثيـــر مـــن البلـــدان الديمقراطية شابت الحياة البرلمانية وســـقط بعـــض أعضـــاء البرلمان فى ممارسات وانحرافات مختلفة. ويكفى فـــى هـــذا الصدد أن نستعرض كتاباً صدر فى الولايات المتحدة الأمريكية من واقع سجلات المحاكم الأمريكية عنوانـــه "كيـــف يُرشـــى

أعضــاء الكــونجرس الأمريكـــي "How Members of Congress are Bribed" ومؤلفـــه "جوزيـــف مـــور" "Joseph Moore".

إن النظام الرأسمالى الذى بنى على أساس الاقتصاد الحر كان زعماؤه أكثر ذكاء مما تصور "كارل ماركس" وأتباعـــه.. فلقد حرصوا على توفير الوقاية من مسببات التوتر والثــورة وكان "بسمارك" – وهو من قمة الطبقة الأرستقراطية الألمانية – أول من ابتدع نظام المعاش للمتقدمين فـــى الســـن.. كمـــا وضع أسس أول نظام للرعاية الصحية عام ١٨٨٠م.. وكـــان "تشرشل" – وهو ابن دوق بريطانى– أول من وضـــع نظـــام التأمين ضد البطالة عام ١٩١١م.. و"روزفلت" –أحد رمـــوز الأرستقراطية الأمريكية– كان أول من وضـــع أســـس دولـــة الرفاهة الاجتماعية Welfare State.

وهكـذا نجحـت الرأسماليـة فـى أن تطيـل عمرهـا وأن تحصـن نفسـها مـن أسـباب الانقـلاب عليهـا، عـن طريـق العنايـة بصـحة المجتمـع النفسـية والعمـل علـى تجنيـب أفـراده كـل مـا يعصـف بحياتهم وطمأنينتهم وراحتهم، ودعم ورعاية الشـرائح المهمشـة أو ذات القدرة الاقتصادية المحدودة، لأن عدم العنايـة بهـذه النـواحى يترتـب عليـه قلـة الإنتـاج، واضـطراب العمـل، وتفشـى التـذمر

والمعاناة، وانتشار التوتر والإحباط، وهذا بلا شك عامل هدام في حياة أى مجتمع ناضج.

وستظل المسئولية الاجتماعية لرأس المال بما تضمنه من مساهمة فعالة فى تقليل الفوارق بين الطبقات، ودعم الخدمات العامة، ومساندة غير القادرين، تشكل الضمانة الحقيقية والتأمين الأقوى ضد كل المخاطر التى يتعرض لها رأس المال. كما أن دور الدولة فى حفظ التوازن بين المصالح المختلفة وفى منع الاحتكار والتصدى للفساد وفى رعاية محدودى الدخل يشكل نظاماً متكاملاً لامتصاص الصدمات Shock Absorber.

لا شك أن النظام الرأسمالى هو أكفأ نظام لحفز المبادرات الفردية وازدهار الإبداع وتحقيق التنمية المتواصلة ولكنه فى نفس الوقت يحمل فى طياته عيبين خطيرين أولهما فترات الكساد وفترات نقص السيولة، وهو وضع يحتاج فى أغلب الأحيان لتدخل الدولة وإيجاد فرص عمل جديدة وضخ مبالغ إضافية إلى السوق ومساندة المتعثرين وتنشيط الاقتصاد بصفة عامة. وثانيهما إيكال الصالح العام إلى كيانات أو مؤسسات هلامية أو شكلية فى كثير من الأحيان. والكساد ونقص السيولة هما من عوامل عدم الاستقرار الاجتماعى التى تسبب توتراً فى المجتمع مما قد يترتب عنه من بطالة ومعاناة.. وازدياد الفجوة بين الأغنياء والفقراء.. وغياب

الأمل فى العدل وتكافؤ الفرص.. وانعدام الخيار أمام الطبقات الدنيا والمتوسطة فى إمكانية الصعود بطريقة شرعية على السلم الاجتماعى.

كما أنه في ظل اقتصاد السوق بدأت الدولة نفسها تتحلل من كثير من هذه المسئوليات، وهنا تثور تساؤلات.. ما مصير هذه المسئولية الاجتماعية.. مسئولية الصالح العام.. إذا كان اقتصاد السوق أساساً في تكوينه وفلسفته لا يولي هذا الموضوع اهتماماً كبيراً، لأن آليات السوق هي التي تحكمه وعلى أحسن تقدير -كما بينا من قبل- فإنه يولي مسئولية الصالح العام أو الخدمات العامة إلى مؤسسات مظهرية أو اعتبارية قد لا تكون لها فاعلية، كما أنه لا يضع فى قمة أولوياته التخطيط الطويل المدى وإنما تحكمه دائماً اعتبارات المكسب السريع والفائدة العاجلة. فعندما تنتقل الدولة إلى اقتصاد السوق فإنها تتخلى عن كثير من هذا العبء، ويصبح هناك تخوف كبير من تآكل الطبقة المتوسطة – وهى صمام الأمان فى أى مجتمع – ومن تقويض السلام الاجتماعي، ومن زيادة البطالة، مع احتمالات تزايد معدلات الإجرام التى ستتولد عن هذه البطالة.. فزيادة معدل البطالة بنسبة ١٪ تزيد جرائم السطو على المنازل بنسبة ١٤٪، وجرائم السرقة العادية بنسبة ١١٪، وجرائم سرقة السيارات بنسبة ٨٪، وجرائم الاعتداء على النفس بنسبة ٥٪. وفى دراسة أجريت حول تأثيرات البطالة قام بها ستيفن رافائيل

بجامعة كاليفورنيا ورودلف ونتر بجامعة لنز مستندة إلى إحصائيات وردت بتقرير مكتب التحقيقات الفيدرالية عن الجريمة فى الولايات المتحدة فى الفترة من ١٩٧٠ -١٩٩٣ اتضح أن زيادة البطالة بنسبة ٢ ٪ أدى إلى زيادة جرائم السرقة بنسبة ٩ ٪ والاغتصاب بنسبة ١٤٪ وجرائم الاعتداء على النفس بنسبة ٣٠٪.(*)

فمع فقدان عدد كبير من الناس فرصة العمل الشريف ومع تخلي الجهات أو الهياكل الموجودة في المجتمع عن مسئولياتها في هذا الشأن بالإضافة إلى خطر أكبر وهو سيطرة التكنولوجيا الحديثة على الحياة وعلى الثقافة والحضارة والتى أدت إلى نوع من التفكك الأسري والتحلل الخلقي وزيادة العنف والجريمة والإدمان في المجتمعات، أصبح التساؤل عن مصير العالم في مواجهة هذه التغيرات هو: هل سيتحول هذا العالم إلى غابة يستطيع فيها من يملك أن يفعل ما يشاء ومن لا يملك عليه أن يحمل السلاح دفاعاً عن حقه ويتحول إلى مجرم ليعيش أو ينتحر؟

ومن ناحية أخرى فإنه فى الغرب - حيث يسود النظام الرأسمالى والاقتصاد الحر- تتسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء،

(*)(Steven Raphael, University of California & Rudolf Winter – Ebmer,University of Linz upon statititics taken from F.B.I Uniform Crime Report in U.S. of 1970-1993).

ففى أمريكا لم يكن هناك توزيع متساوٍ لمكاسب الفترة الطويلة من النمو الاقتصادى ومعدلات البطالة المنخفضة. فعلى مدار السنوات العشرين الماضية ذهب ٩٧٪ من الزيادة فى الدخل إلى أغنى ٢٠٪ من العائلات الأمريكية، حيث وصلت الزيادة فى الدخول إلى ٤٪ للخُمس الأغنى من الذكور خلال الفترة من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٦، بينما انخفضت فى الخُمس الأفقر بنحو ٤٤٪. وفى الوقت الذى تزداد فيه دخول الأغنياء يعيش ٣٦,٥ مليون أمريكى حالياً فى حالة من الفقر (وهو ما يمثل ١٣,٧٪ من عدد السكان)... ويمتلك ١٪ فقط من الصفوة ٤٠٪ من ثروات البلاد مقارنة بـ ١٣٪ كانوا يملكون نفس النسبة منذ ما يقل عن ٢٥ عاما. وفى دراسة أخرى فى الولايات المتحدة الأمريكية قُدمت فى كتاب للمؤلف لستر ثرو "Lester C. Thurow" اسمه مستقبل الرأسمالية "The Future of Capitalism"، وكتاب آخر هو "بناء الثروة" " Building Wealth" أكد المؤلف تزايد الفجوة فى الثروات بين القاع والقمة حيث قال إن هناك ٤٪ فقط من قمة المجتمع الأمريكى يملكون أكثر مما يملكه ٥١٪ من القاع. فالتفاوت الآن فى الدخول فى الولايات المتحدة لم يحدث فى أى وقت مضى منذ فترة "الكساد العظيم". وفى حين تصل نسبة البطالة على المستوى القومى فى أمريكا إلى ٥,٤٪ فإن هذه النسبة تصل إلى ٧٠٪ فى كثير من الأراضي المخصصة لمواطنى أمريكا الأصليين، وفى المناطق الريفية المنعزلة تصل نسبة

البطالة غالباً إلى مثلين وأحياناً أربعة أمثال نسبتها على المستوى القومي. وأصبحت شروط الحصول على التأمين الاجتماعي للعاطلين أكثر تعقيداً حيث يحصل ٣٩٪ منهم فقط على هذا التأمين مقارنة بـ ٧٠٪ عام ١٩٨٦.

وفى بريطانيا، عندما تولت مارجريت تاتشر مقاليد الحكم فى عام ١٩٧٩ كان الخُمس الأغنى من الشعب البريطانى يحصل على ٤٣٪ من إجمالي الدخل المكتسب، في حين يحصل الخُمس الأفقر على ٢,٤٪.. وفى عام ١٩٩٦– وهو آخر عام لحكومة حزب المحافظين – كانت هذه النسب ٥٠٪ للخُمس الأغنى و٢,٦٪ للخُمس الأفقر رغم ازدياد إجمالى الناتج المحلى فى نفس هذه الفترة مما يعنى أن الفقراء يحصلون على قطعة صغيرة من الكعكة الكبيرة.. وقد ارتفع عدد العائلات التى تعيش تحت خط الفقر بنسبة ٦٠٪ فى الثمانينيات وبحلول عام ١٩٩٦ كان بالمملكة المتحدة أعلى نسبة من الأطفال الذين يعانون من الفقر فى أوروبا منهم ٣٠٠ ألف طفل ساءت أحوالهم وتدهورت فى عام ١٩٩٥/١٩٩٦ خلافاً لما كان عليه الوضع فى عام ١٩٧٩. وقد استمرت الزيادة فى عدد الذين يعيشون تحت خط الفقر فى ظل حكومة حزب العمال الجديدة بالرغم من الجهود التى بذلت لتغيير ذلك الوضع. حيث ارتفع عدد الأسر التى تعيش على أقل من نصف متوسط الدخل الأسبوعى– البالغ ٢٧٨ جنيهاً استرلينياً وذلك بعد خصم تكاليف السكن– من

١,٣ مليون أسرة إلى ١٤,٢٥ مليون أسرة خلال الفترة من عام ١٩٩٤ إلى عام ٢٠٠٠. وهذا العدد الأخير يمثل أكثر من ضعف العدد الذى كان موجوداً في أوائل الثمانينيات، وقد حدثت زيادة بعدد ٥٠٠ ألف شخص من هذه الأسر التى تعيش على أقل من نصف متوسط الدخل الأسبوعى بعد تولى حزب العمال مقاليد السلطة فى عام ١٩٩٧، و يتركز الفقر بين الأسر ذات العائل الواحد وكذلك فى العائلات التى لا يعمل أحد من أفرادها. كما زادت نسبة أصحاب المعاشات الذين يعيشون على أقل من ٤٠٪ من متوسط الدخل من ٢٠٪ إلى ٢٣٪ بين عامى ١٩٩٨-١٩٩٩.

وفى اليابان اعترفت الحكومة اليابانية أن نسبة البطالة لديها ١٠٪ وهذا هو الرقم الرسمى.. وفى أوروبا لم تنجح دولة أوروبية فى السنوات العشر السابقة فى خفض نسبة البطالة عن ١٠٪، وفى كثير من الدول تصل النسبة إلى ١٥٪ و١٦٪ ، ومع زيادة دخول الكمبيوتر... والسوبر كمبيوتر والإنسان الآلى فى كثير من مجالات الحياة بدأت ظاهرة البطالة تصبح خطراً رهيباً على البشرية كلها.

إن العولمة فى حقيقة الأمر تزيد من الاعتماد المتبادل بين سكان العالم بصورة تؤدى إلى تداخل وتشابك الاقتصاديات وتمتد بتأثيرها إلى باقى مجالات الحياة فلا تقف عند الاقتصاد فحسب وإنما تتعداه إلى الثقافة والسياسة والتكنولوجيا فما يحدث فى أى مكان تتداعى تأثيراته السلبية والإيجابية على باقى الأماكن فلم تعد هناك

أحداث يقتصر تأثيرها على مجتمعها المحلى فمثلاً لو انخفضت قيمة العملة فى تايلاند فإن هذا ربما يؤدى إلى تصاعد معدلات البطالة فى جنوب شرق آسيا ثم يؤدى إلى تباطؤ الاستثمار المتاح للخدمات الاجتماعية فى أمريكا اللاتينية وربما يؤدى إلى ارتفاع مفاجئ فى تكلفة الأدوية التى تحتاجها أفريقيا وتستوردها من الخارج.

ويرى دعاة العولمة أنها تتيح فرصاً كثيرة لملايين البشر فى شتى أنحاء العالم على أساس أنها تسمح بتزايد معدلات التجارة، وزيادة تبادل التكنولوجيات الجديدة، وتدفق الاستثمارات الأجنبية، وتوثق الارتباط بين الشعوب عبر الإعلام والإنترنت وكل ذلك من شأنه أن يدفع بالنمو الاقتصادى إلى الأمام، وبالتقدم البشرى إلى وضع أفضل يسهم فى القضاء على الفقر فى القرن الحادى والعشرين، وهؤلاء الدعاة يرون أن العولمة أسواق عالمية، وتكنولوجيا عالمية، وأفكار عالمية، وتضامن عالمى فى محاولة لإضفاء الطابع الإنسانى على العولمة. لكن العولمة والديمقراطية والسوق الحرة لن تكون لها قيمة أو مضمون ما لم تكن مصحوبة بالحديث عن العدالة والحديث عن نظام اقتصادى دولى عادل يضفى قدراً من المصداقية على إنسانية العولمة وينقذ العالم مما هو مقبل عليه من تفاوت صارخ يقسم سكان الكرة الأرضية إلى أقلية مترفة ترفاً شديداً

وأغلبية فقيرة فقراً صارخاً مما يضيف عبئاً جديداً وخطراً جديداً يحط من كرامة الإنسان ويفقد العالم ما يصبو إليه من تعاون وانسجام واستقرار.. إن العالم الذى تحول إلى قرية كونية صغيرة لن يتهيأ له الاستقرار ما لم يكن العدل شريعة دولية ثابتة ومستقرة فيه، وحرية الأسواق لا تنطوى بالغريزة على قيم العدل بل هى بطبيعتها تنطوى على قيم الأثرة والأنانية والاستحواذ، وإذا كانت القوة الرأسمالية الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تروج لفكرة سوق عالمية حرة واحدة فنحن لا نعترض على ذلك ولكننا نرى أن تكون هذه السوق سوقاً عالمية حرة وعادلة أيضاً فى الوقت نفسه.. وأن تقوم هذه السوق فى إطار مجتمع إنسانى تربط بين أفراده وشعوبه علاقات من الاهتمام المشترك والتكافل والمساندة.. إن العولمة كنظام اقتصادى فى حاجة ماسة إلى مجتمع إنسانى فى إطار أخلاقى، وإلا أصبحت غابة لا مكان فيها للعدل ولا أمل فيها للضعفاء.

ولقد خلق الانفجار المعلوماتى نظاماً اقتصادياً قد يستطيع أن يقدم أو يكتشف تكنولوجيات رائعة، وقد يستطيع أن يكون ثروات ضخمة جداً لمن يحتكر السوق العالمية، لكن من المؤكد أن مثل هذا المجتمع ليس له حتى الآن وجه إنسانى أو إطار اجتماعى مبنى على التكافل والتعاطف وبالتالى فلا بدليل أمامنا إلا أن نعزز القدرة الذاتية التى تستطيع أن تملأ الفراغ، وأن نعد المواطن ونسلحه

بالقدرات التى تمكنه من أن يكون مواطناً فعالا مقدراً لواجباته وقادراً على خدمة وطنه وأن يكون إنساناً تربطه بباقى أفراد المجتمع علاقات إنسانية. فالدولة التى تعتمد فقط على الاستثمارات الأجنبية تعرض نفسها لأخطار غير محسوبة يمكن أن تنشأ فى حالة هروب هذه الاستثمارات بعد أن تجد لها ميزة نسبية أكبر في بلد آخر.

وكما أكدنا من قبل فلقد كان السبق مرهونا إلى وقت قريب باكتشاف تكنولوجيات جديدة فقط أى اكتشاف تكنولوجيا لصنع مادة معينة مثلاً أو لإنتاج سلعة معينة جديدة، وكان المعروف أن صاحب الاكتشاف هو من اكتشفه أما الآن وكما بينا من قبل فصاحب الاكتشاف هو من ينتجه بطريقة مبتكرة وأفضل، وأرخص، وأسرع.. وهذا يقتضى تغييراً في هياكل الإنتاج لأن النظام القديم كان يكفي فيه وجود قلة من المكتشفين والمبتكرين على مستوى عال من التعليم والخبرة هم الذين يكتشفون التكنولوجيات المتطورة، أما قواعد الإنتاج فكان يكفى فيها وجود قوى منتجة من العمال على مستوى تعليمى محدود لإنتاج أو استخدام هذه التكنولوجيات. أما عندما يكون الأمر مرهونا بتطبيقات جديدة أو مبتكرة أو مواجهة مشكلات أو مواقف متغيرة، فلابد أن تكون هناك قاعدة عريضة من العمال المؤهلين على خطوط الإنتاج لديها قدرة على فهم الرياضيات المعقدة والتعامل مع الكمبيوتر.. لديها قدرة على إصدار قرارات

على خط الإنتاج ذاته دون الرجوع إلى المركز.. لديها قدرة على التخاطب بلغات أخرى، لكي تتعرف على أذواق المستهلكين، لأن إنتاج الموجة الثالثة سيكون إنتاجا مفصلاً لرغبات مجموعة معينة من المستهلكين. فطبيعة السرعة في مجتمع الموجة الثالثة تجعل أذواق المستهلكين تتغير من فترة إلى أخرى بسرعة كبيرة، لذلك فقد أصبح من الضروري أن تتعدل خطوط الإنتاج طبقا لتغير أذواق المستهلكين أو رغباتهم، وبالتالى لابد للقائمين على خطوط الإنتاج من قدرات متميزة لم تكن مطلوبة في مرحلة سابقة وهذا يقتضى نوعية معينة من الجودة والقدرة على خط الإنتاج ذاته.

الفصل الثانى

انهيار الحواجز الجغرافية والوطنية أمام زحف العولمة

إن العولمة ما هي إلا مسرح تتحرك فوقه الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وعابرة القارات التى لها ميزانيات تفوق ميزانيات العديد من الدول، ولها مصالح لا تتطابق مع مصالح الدول، ولها طموحات لا تقف عند حدود. ومن ثم فإنها ترفع شعار العولمة لتفسح لنفسها طرقَ التوغل فى الأسواق وتزيل التشريعات والمنافسات المحلية لتنتشر دون أى عائق بصرف النظر عن الأضرار التى تلحق بمصالح دول العالم الثالث الفقيرة.

إن التغيرات القادمة تشمل مسلمات وأوضاعا كانت غير مطروحة للمناقشة فيما مضى، فعلى سبيل المثال، فإن الحد الفاصل بين ما هو وطني، وما هو عالمي، أصبح هلاميا، لا يمكن أن نضع معياراً أو إطارا محددا له، ففي ظل اتفاقية الجات وحرية التجارة، تتعاظم شفافية الحواجز ومسامية الحدود، لكل ما هو خيرٍ، ولكل ما هو سيئ في نفس الوقت، لأنه إذا كانت الحدود حدوداً مسامية Porous تسمح بانسياب المعلومات وحرية انتقال التجارة، وحرية انتقال الأفراد، فهي – أيضاً – تسمح بما هو غير ذلك من عادات، ومسائل لا تقرها طبيعتنا أو تقاليدنا أو عاداتنا. فالتحدى الذى

نقابله، هو تحدي العالمية، ذلك لأن القرن الحادي والعشرين، هو قرن العالمية، بحيث أصبح هناك ضغط شديد على كل ما هو وطني، لدرجة أن هناك الكثير من المفكرين يناقشون فكرة الكيان الوطني ذاته، فهل يمكن أن يستمر الكيان الوطني نفسه في مواجهة تكتلات عالمية، وشركات متعددة الجنسيات، وحرية تجارة غير مسبوقة؟ وهل يمكن أن يستمر فى مواجهة تفجر معرفي لا يعرف حدودا أو مسافات، حيث اخترق الحاجز الزماني والمكاني في نفس الوقت؟ وهل يمكن أن تكون هناك حماية وطنية للصناعة والقيم و القرارات الوطنية، في مواجهة عالم تسوده فكرة التجارة الحرة، وفي سوق عالمية واحدة وقرية كونية صغيرة؟

كما أنه قد مضى الوقت الذى كان يمكن فيه لأى دولة أن تقبع داخل حدودها، وأن تنعم وحدها بالرخاء، وأن تترك غيرها لمواجهة المجاعة، أو الفقر، أو الإرهاب، أو التخلف، وذلك لأن واقع ثورة الاتصالات، قد تخطى وتجاوز حواجز الزمان والمكان، هذا فضلا عن أن التقدم التكنولوجي قد أتاح إمكانات، وأعطى قدرات وفرصاً للأفراد بطريقة غير مسبوقة من قبل، ولعل من الأدلة وأبرز الملامح على ذلك، ما نشاهده بالنسبة للبلدان التي تعاني الفقر والمجاعة، والأوضاع الاجتماعية المتردية، من اجتياح ظاهرة الهجرة الجماعية لمواطنيها إلى الدول الأكثر تقدما، حيث يتوافدون إلى شواطئها، ويمثلون عبئا، لم تستطع أن تتعامل معهم

الأجهـزة الأمنيـة مـن حـرس الحـدود في هـذه الـدول، لأنــه إذا تم الإمساك بالبعض منهم لترحيلهم فر البعض الآخر، بـل وعـاد مـرة أخـرى مـن نجحـوا في إبعـادهم. وبالفعـل فـإن الولايـات المتحـدة الأمريكية تعاني بشدة من هذه المشكلة المتمثلة في وجـود أعـداد مـن البشر يعيشون عنوة على أرضها، وبالرغم من جسامة هذه المشكلة، فإن هذا الوضع ليس هو الخطر الوحيـد، لأن هناك احتمالا آخــر أكثر فداحة وأشد خطورة، ومـــن الممكــن جــدا أن يفــرض وجوده، ومؤداه أن الشعوب التي تشـــعر بأنهـــا مهمشـــة أو مظلومة وفي واقع غير عادل، وتعامل معاملة مـــن الدرجـــة الثانية أو الثالثة قد تتجه بدافع فقدان الأمل والإحباط الشـــديد إلى القيام برد فعل يائس وغير مسبوق ضد الدول الأخـــرى، وهذه الاحتمالات الواردة، تتجاوز التفكير النظري، إلى أرض الواقع الفعلي، ولعلنا نعايش حاليا إرهاصات له، في أحـــداث متفرقة ومختلفة تحدث في أجزاء متعددة من العالم.

وإحدى الحقائق الموجودة في ثورة الاتصالات أنها تشكل ضـغطاً هائلاً علـى الكيـان الـوطني في كـثير مـن الأحيـان، لأنــه مـع ثـورة الاتصـالات بـدأ النـاس في أي مكـان في العـالم يتصـلون ويشـاهدون ويتأثرون بما يقال وبما يحدث في أماكن تبعد آلاف الأميال، وأصبح الانتقال عبر الزمـان والمكـان مسـألة سـهلة وميسـورة لكـل إنسـان، وأصبحت أية دولة لا تستطيع أن تعيش في معزل عن الأحداث التـي

يمكن أن تحدث في مكان يبعد ١٠ آلاف كم عنها. ولـذلك أصـبح مـن الضروري بالنسبة لأي شعب وأية دولـة عاقلـة، أن يبقـى الاهتمـام العالمي جزءاً من نظرتها للأمور، لأن الأحداث الخارجيـة لم تصـبح خارجية بالمعنى العلمـي السـليم، ولأن الأحـداث الدوليـة لم تصـبح دولية بالمعنى اللغوي، كل حدث خارجي وكل حدث دولي ممكن أن يكون لـه تـأثير محلـي وتـأثير وطـني والعكـس صـحيح. وأصـبحت المواءمة أو الموازنة بـين الاعتبـارات الوطنيـة والاعتبـارات العالميـة مسألة تؤرق الناس في كـل مكـان. وبـنفس القـدر فـإن الموازنـة بـين التكنولوجيا المتقدمة، وسيطرة التكنولوجيا على نمط الحيـاة، وقـيمٍ الحضارة والثقافة والجذور الوطنية أصبحت مسألة تشكل كثيراً مـن الصعوبات في الدول، وإذا كانت المسألة تسير في هـذا الاتجـاه فـإن هـذا يعنـي أنـه لا تسـتطيع أيـة دولـة أن تعـيش بمعـزل عـن هـذه الظـاهرة، ومن ناحية أخرى فإذا كانت البطالة المنتظـرة فـي المستقبل القريب ستكون على المستوى الـدولى، فإنـه مـن المنتظر طبقا لهذا الاتجاه أن الوظائف أو فرص العمل المتاحة ستبقى فقط في نطاق إنتاج المعرفة. إن العامل المثـالى فـي إطار العولمة هو الإنسان الآلى Robot، والوظيفة الأساسية فى الموجة الثالثـة هـى المحلـل الاعتبـارى Symbolic Analyst ، ومجال النشاط الأمثل هو الحقيقـة الاعتباريـة Virtual Reality، ولابد ونحن نخطـط محليـاً أن نفكـر

بمنظار دولى وفى إطـار آليـات وقواعـد الموجـة الثالثـة والمجتمع ما بعد الصناعي. فالحدود والحواجز والسدود تسقط واحدة بعد أخرى، والسوق العالمية سوق لا تعتـرف بحـدود ولا بفواصل، ولا بأي قيود مكانية أو زمانية، فهنـاك حريـة انتقال لا قبل لأحد بمقاومتها بالقدرات والخبرات الموجودة في أية دولة، وتصبح هذه الخبرات عملة نادرة تستطيع أن تجـد عملا في أي مكان، بل إن قوة أية دولة هي في قدرتها علـى اجتذاب هذه العمالة النادرة من الدول الأخرى، فنزيف العقول والخبرات أصبح واقعاً ملموساً يشكل حقيقة مؤلمة تلقى بكـل ثقلها على الكيانات الوطنية.

إن الحديث عن المستقبل يحمـل الكـثير عـن احتمـالات كـبيرة وغريبة جداً، فعندما نقرأ كتاباً مثل "نهاية العمل" "The End of Work" للمؤلف جيرمى رفكـن Jeremy Rifkin، أو مثـل كتـاب "نهايـة التعلـيم" "The End of Education" للمؤلـف نيـل بوستمان Neil Postman، أو كتاب آخر "نهايـة الدولـة" "The End of the Nation State" للمؤلف كنيتشـى أومـا Kenichi Ohmae. ومثل هذه الكتب توضح أنـه فـى ظـل النمـو الاقتصـادى الحر، وفى ظل نمو حركات الجمعيات غير الحكومية، ومـؤتمرات الأمـم المتحـدة، والاتفاقيـات الدوليـة الخاصـة بالتجـارة والجـات، والحرية غـير المسبوقة للفـرد وللجماعـات الصـغيرة، أصـبحنا فـى

مواجهة تفكك حقيقى، فى شكل الدولة وحدودها كما عرفناها. إن نظام العولمة له قوة طاردة مركزية تقتلع الإنسان من جذوره.. ومن تربته.. يتخلخل النسيج الاجتماعي بسببه؛ فالعولمة لا تطيق حواجز أو قيوداً، وتجتاح كل الحدود الجغرافية و الوطنية، وأحياناً الأخلاقية، فالسوق فى النظام الجديد لا تعرف حدوداً، ولا تطيق للحدود وجوداً.

وفى ظل ذلك النظام، أصبحت الاستثمارات تتم فى إطار احتكارات عالمية من أكثر من دولة.. وهذه الاحتكارات ذات الصفة الدولية أو التى تضم عدة جنسيات ارتباطها بأى شئ ولأى شئ ضعيف. كما أن طبيعة هذه التكتلات أو المنظمات أنها تتخطى كل الحواجز فى بعض الأحيان لتحقيق المكاسب المادية العاجلة التى تريدها وهى تنظر إلى مصلحتها الاقتصادية البحتة دون اعتبارات أخرى وعلى قدر حاجتها للامتيازات يمكن أن تنتقل فى أى وقت إلى بلد آخر فيه ميزات أحسن.. فلو تصورنا أن هونج كونج مثلاً لم تصبح هى الدولة الأكثر رعاية لمصالح المستثمرين، ولو تصورنا أن سنغافورة مثلاً سوف تعطيهم ميزات أكثر، فإن المؤسسات والاستثمارات سوف تنتقل إليها وتترك الأخرى فجأة دون أى اعتبار لما سيحدث لهذه الدولة من فراغ أو خلخلة تمس استقرارها.

ونحن فى الوطن العربى فى حاجة شديدة لأن نفكر فى المستقبل بعقلية المستقبل وليس بعقلية الماضى التى لا تزال

تسيطر على طريقة تفكير الكثيرين ممن يشتغلون بساحة العمل العام والمصابين بمرض جديد هو عمى الأزمان. فالعالم من حولنا يتغير، وطرق التفكير تتطور، ومصادر القوة تشهد تحولات غير مسبوقة، وهناك الكثير من المجتمعات والدول التى تنتمى – تقليدياً– إلى معسكر الجنوب والعالم الثالث بدأت تنفض عن نفسها غبار الفكر التقليدى وبدأت تخترق حواجز التخلف وتقترب شيئاً فشيئاً من عضوية نادى التقدم والنهضة المعاصرة التى تركز على ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال وما تسمح به من فرص الإنجاز والتفوق ووفقاً لمعايير ثورة المعلومات، فإن الوطن العربى مازال على الأعتاب ولم يستطع حتى اليوم أن يدخل بقوة فى غمار هذا التطور الحاسم.

ومصر جزء من هذا العالم لا يمكن أن تنفصل عنه لأنه مع ثورة الاتصالات أصبح الانتقال عبر الزمان والمكان مسألة سهلة وميسورة لكل إنسان وأصبحت أية دولة لا تستطيع أن تعيش فى معزل عن الأحداث. والسؤال الذى يطرح نفسه: كيف يمكن أن نوفق بين كل هذه الاعتبارات؟

فلقد مضى الوقت الذى كنا نستطيع فيه أن نتمسك بمعايير محلية وأن نتقوقع داخل حدود جغرافية وأن نكتفى بمعدلات أداء محلية. هذا الوقت قد مضى وولى بغير رجعة، فالمنافسة الدولية فى إطار النظام العالمى الجديد وفى إطار الكوكبية

أو العولمة لم تعد تترك لبلد ما أو لمجتمع ما فرصة أن يطبق معايير محلية. هذا أمر واقع نلمسه ونستمع إليه ونشاهده يومياً.. ولم يعد هناك بلد واحد يستطيع أن يتقوقع داخل حدوده أو أن يطبق معايير خاصة به متجاهلاً هذا الإعصار الذى يحيط بنا جميعاً من كل جانب. لقد كنا إلى وقت قريب نستطيع أن نكتفى بمعايير محلية، وكنا نستطيع أن نتعلل بظروف داخلية، وكان بمقدورنا أن نستفيد من توازنات القوى الدولية، وكنا فى بعض الأحيان نحصل على مزايا من هنا وهناك ونكتفى بتطبيق المعايير التى نتصور أنها تلائمنا أو النظم التى نعتقد أنها تناسبنا، وكنا نستطيع أن نكتفى بتكنولوجيا متدنية ونستفيد من الكثرة العددية أو من رخص العمالة أو من أى ميزة تنافسية أخرى نملكها بحكم الطبيعة أو الموقع أو التاريخ، ولكن هذا الزمن قد ولى بغير رجعة. اليوم لا تستطيع أية دولة أن تنافس وأن تظل فى نطاق الدول الباقية فى هذا العالم بمعايير محلية، ستهمش هذه الدولة بلا أدنى شك وستفقد قدرتها على البقاء وقبل ذلك ستفقد الكثير من مقومات وجودها واستقلالها وحرية إرادتها. وهذا مصير لا نستطيع أن نواجهه فى بلد علّم العالم العلم والحضارة ونشر المعرفة إلى كل ربوع الدنيا، وحقق أجدادنا العظام أول حضارة على هذا الكوكب وأكبر نهضة فى تاريخ هذا الكون وأمجادهم لا زالت شاهدة عليهم ولا زالت تحظى بإعجاب وانبهار كل الدول حتى المتقدمة منها اليوم. وبالتالى فليس أمامنا سوى أن نطبق المعايير العالمية.

ويحضرنى فى هذا الصدد قول كاتبنا الكبير الأستاذ العقاد:

أجدادكم إن عظموا وأنتم لم تعظموا ..

فإن فخركم بهم عارٌ عليكم مبرمُ

إن العولمة تسعى وبكل قوة إلى تفكيك الدولة- أى دولة - لأن الكيان الوطنى والمؤسسى للدولة يعد عائقاً خطيراً فى وجه العولمة. فلا يوجد نشاط أكثر عداءً لاعتبارات الوطنية كالتجارة، ولا توجد أيديولوجية أضعف اهتماماً بالوطنية كالرأسمالية، ولا يوجد تحد أكثر ضراوة للحدود كالسوق. ومن هنا فإن العولمة وهى فى محاولاتها لتفكيك الدولة ترفع شعارات ظاهرها رحمة وباطنها عذاب. فاللامركزية والمشاركة المجتمعية وتعاظم دور الجمعيات غير الحكومية واحترام حقوق الإنسان، مبادئ لا خلاف عليها وهى تشكل طاقات مضافة للعمل الوطنى وضمانات واجبة للشفافية والعدالة وحقوقا أساسية يجب أن تصان. ولكن حينما تتحول اللامركزية إلى وسيلة لتحجيم دور الدولة المركزى فى الحفاظ على النسيج الوطنى الواحد ودعم الهوية والكرامة الوطنية وضمان تكافؤ الفرص، وحينما يصبح دعم المجتمع المدنى وسيلة لاستقطاب أفراد أو هيئات عن طريق منح ومزايا أجنبية، وحينما تصبح حقوق الإنسان هى حقوق الخارجين

على القانون والمروعين للآمنين والبسطاء - فإن هذه المبادئ تتحول إلى آليات لتفكيك الدولة وتصير عملياً كلمة حق يراد بها باطل.

فاليوم مصر وكل دول العالم تتعرض لازدياد النفوذ الدولى على القرار الوطنى، نراه فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى.. ونراه فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية.. نراه فى اتفاقية "الجات".. نراه فى مؤتمرات حقوق الإنسان.. نراه فى الرأى العام العالمى ومن يشكلونه.. كل ذلك نراه مؤثرا على الإرادة المحلية لأى دولة من دول العالم. ونتيجة لتزايد النفوذ الدولى وتناقص قدرة كل دولة على مراعاة ظروفها الاجتماعية والبيئية والثقافية، ولتزايد الماديات التى نتجت عن الثورة التكنولوجية الهائلة، فإن المواطن العادى يقل اعتماده على الدولة التى ينتمى إليها، وأيضاً هناك نوع من الاستقلال غير المسبوق يهدد الانتماء الوطنى فى بعض الأحيان وهو غلبة الحياة المادية الشديدة، وسيطرة التكنولوجيا على الحضارة وتأثيرها على القيم فى المجتمع.

الفصل الثالث

تراجع الوازع الأخلاقى
وسيادة القيم المادية

لقد سيطرت التكنولوجيا علـــى ثقافـــة بعـــض الشـــعوب وأفقدتـها هويتـها في بعض الأحيان، في ظاهرة يطلــق عليهــا سيطرة التكنولوجيا على الثقافـــة "Technopoly"، وكـــان نتيجتـها التحلل الأخلاقى والتفكك الأسرى، والتمرد والعنـــف، والبطالة، والجريمة والمخدرات...الخ. كما كان من نتيجتهــا في أحيان أخرى، انتشار نوع من التعصـــب الشـــديد الـــذي يتصف بالتفكير الأحادي الاتجاه الذي لا يعبأ بـــالمتغيرات، ولا يقيم وزناً للاعتبارات العلمية الموجودة فـــي الحيـــاة، وفـــي الحقيقة فإن كلاً من الأمرين خطير ويقـــع عـــبء مســـئولية معالجة آثاره السلبية علينا نحن.

إن التكنولوجيـــا الحديثـــة التـــى تتمثـــل فـــى الإنســـان الآلى، والتحكم عن بعد، والكمبيـوترات المتطـورة، والتـى أصبحت تحـل محل قوة العمل التقليديـة فـى قطـاع الإنتـاج الروتينـى، وتقلـل مـن الاعتماد على الإنسان فـى الخـدمات المباشـرة، بالإضـافة إلى دخـول التكنولوجيـا الفائقـة - أعطـت الإنسـان إمكانيـات هائلـة لم تكـن موجودة من قبل. وإن أدى ذلك إلى إزاحة أعداد كثيرة ومتزايـدة مـن القوى العاملة.

ومن ناحية أخرى فنحن نواجه تفجراً معلوماتياً خطيراً يشكل فيضاناً كاسحاً يغمر العقل البشرى. وقد قال أحد المفكرين نيل بوستمان "Neil Postman" فى مجال المعلومات: إننا نواجه " إيدز " جديداً لأنه إذا كان الإيدز هو فشل الجهاز المناعى لدى الإنسان، فإن الإيدز الجديد هو الذى يغمر المجتمع بفيضان من المعلومات التى لا يستطيع أن يتعامل معها بضوابط أخلاقية تمنع أو تقلل من أضرارها. فالمعلومات أياً كانت هي مزيج من الخير والشر، وعندما يكون حجم المعلومات معقولاً فإن المجتمع يستطيع بأجهزته ومؤسساته - المدرسة، المؤسسة الدينية، القضاء، القانون... إلخ - أن يتعامل بكفاءة مع هذه المعلومات ويفرزها، بما يقى المجتمع وخاصة بعض شرائحه كالأطفال ومحدودى الثقافة من شرورها أو آثارها الجانبية أو مردودها السلبى، حيث يستطيع أن يحلل، وينقى، بل ويحجب. فنحن نواجه فى هذا المنعطف التاريخى تحديات خطيرة.. أمامنا تحدى التقدم بما يفرضه من احترام التكنولوجيا المتقدمة، واكتشافها واستعمالها وتطبيقها، وفى نفس الوقت حماية المجتمع من سيطرتها على الحضارة والثقافة. وهذه مشكلة يعانى منها اليوم المجتمع الغربى، حيث أدت "التكنولوجيا" إلى تفكك النسيج الاجتماعي، كما بنيت "التكنولوجيات" على أشلاء السلام الاجتماعي، وتحولت من أداة ووسيلة إلى غاية، ومن جهاز أو آلة

إلى وحش. لذا يتعين علينا أن نحصن أبناء وطننا بالقيم الأخلاقية السليمة والعادات والتقاليد السامية.

واليوم ونحن نتقدم في هذا العالم، ونأخذ بأسباب التكنولوجيا المختلفة، وبأحدث وسائل وأساليب الاتصال، علينا أن نحرص ونؤكد على الضوابط التي تحمي جذورنا وتقاليدنا وقيمنا، لأن هذا الوطن العظيم يتميز ويتسم بقيم ومعتقدات وهوية مميزة وجذور تمتد إلى أعماق الماضي. ونحن لا نستطيع أن نغامر ونجازف، كما حدث لبعض البلاد، أو بعض الشعوب الأخرى، بفقدان هويتها، ومن ثم فعلينا ونحن نأخذ بأسباب التقدم والوصول بها إلى غايتها، ومنتهاها أن نحاول - بل ونحرص أيضاً - على أن نعمق جذور الانتماء وأسس الحضارة وقيم التراث التي نعتز ونفخر بها، حتى لا نكون ضحية الموجة الثالثة أو ضحية للتكنولوجيا المتقدمة. فإذا كنا نأخذ بأسباب التكنولوجيا المتقدمة، فإننا أيضاً نحتفظ ونتمسك بالجانب المشرق في حياتنا المتمثل في قيمنا، وتقاليدنا، وأخلاقنا وهي في الحقيقة معادلة صعبة لا تهم أشخاصاً أو فئات كثيرة في هذا العالم، ولكنه أمر يهمنا نحن كشعب له قيمه الإنسانية الرفيعة، وله تراثه الحضاري، ولا أعتقد أن سطوة التكنولوجيا وسيطرتها تعد ضماناً لرفاهية أو سعادة الإنسان، إذا أغفلنا الجانب الروحي من حياته وقيمه العليا النبيلة، لأن هذا يفقد الإنسان مصدرا من مصادر

السعادة والرضا التي لا يمكن لأي تكنولوجيا أن تعوضه مهما كانت طبيعة تقدمها.

وكما أكدنا من قبل فنحن أيضا فى حاجة إلى تعميق البعد الإنسانى للعلم، فنحن حين نتحدث عن أخطار العلم وسيطرة التكنولوجيا المتقدمة على الثقافة والحضارة، فإننا فى الواقع لا نتحدث عن أخطار بسيطة لأنها يمكن أن تؤدى إلى أخطار وكوارث محققة. وقد شبه أحد العلماء البارزين دوين فارمر "Doyne Farmer" هذا الموقف الذى يمر به الإنسان قائلاً بأن "الإنسان قد استطاع فى منتصف القرن العشرين أن يكتشف ما يمكن أن يدمر الحياة الإنسانية على سطح هذا الكوكب، وأنه فى منتصف القرن الحادى والعشرين أو قبل هذا سيستطيع أن يكتشف حياة صناعية جديدة على سطح هذا الكوكب، لأنه استطاع أن يجتاح الحدود والضوابط الطبيعية، والفسيولوجية"، ويرى المفكر أن هذا الاكتشاف هو الأخطر على الإنسان وعلى كوكبنا كله. لذلك نحن فى حاجة إلى أن نعمق فى الإنسان المصرى قيم الولاء والانتماء لقيمه ومعتقداته، ولحضارته، ولجذوره.

ونحمد الله أن مصر لها قيمها الأخلاقية، ومبادؤها وطباعها وهي من عوامل الاستقرار التى نتمسك بها وتعطى لنا قوة فى مواجهة التفكك الاجتماعى نتيجة التكنولوجيا وسيطرة المادية على

قيم المجتمع. فقد كان التماسك الاجتماعي هو أحد أسباب النصر في أكتوبر ١٩٧٣، ولابد أن نحافظ عليه خصوصاً بعد أن غلبت سيطرة التكنولوجيا على الحضارة والقيم وما ينتج عن هذا من تفشي الجريمة، والتفكك الأسرى واللجوء إلى الإدمان والمخدرات، وكل أنواع الموبقات، وهذا ما نأمل أن نتجنبه عن يقين بأن القيم الإنسانية والحضارية لشعب مصر العظيم بما تمثله وتدعو إليه من التكافل والتسامح والوسطية والرحمة كفيلة بمواجهة هذه الأخطار والتعامل معها في اتجاه التقدم الذى ننشده ونسعى إليه بكل العزم والإصرار.

الفصل الرابع

منطق القوة وزوال الحاجة إلى تبرير استعمالها

نحن الآن في مرحلة تاريخية ستتأثر بها كل الشعوب، حيث نشهد من حولنا مشاهد يمكن أن تكون فى الكوميديا الإلهية أو الأساطير الإغريقية أو فى حكايات الخيال العلمي.. أشياء لا تتعلق بالثوابت التى عرفناها، ولا بالقيم التى آمنا بها ولا بالمبادئ التى نشأنا على احترامها وتقديرها. فنحن فى عالم لا يعترف إلا بالقوة ولا مكان فيه للضعفاء ولا سبيل فيه للمتخاذلين ولا للجهلاء ولا لأنصاف المتعلمين، عالم لا يحترم إلا منطق القوة.

وقد تدرجت هذه القوة عبر التاريخ إذ كانت فى الماضى تتمثل فى قوة الإنسان العضلية والبدنية وهى التى كانت تحسم الأمور فى المعارك، ثم جاءت قوة البارود، ثم باكتشاف الروافع أصبحت القوة باستعمال الطاقة، ثم قوة الأسلحة الجديدة في الطيران، وفى البر والبحر، ثم جاءت الطاقة النووية وأسلحة الدمار الشامل، واليوم يشهد العالم معايير جديدة للقوة مبنية على تكنولوجيا المعلومات والالكترونيات والتكنولوجيا الحيوية والإنسان الآلى والتكنولوجيا فائقة الصغر وهو ما يشكل منظومة متطورة من أسلحة الدمار

الشامل الأمر الذى يحتم علينا أن نسابق الزمن ونضاعف الجهد والإصرار، للانخراط فى العالم المتقدم، واستيعاب آليات العصر.

وقديماً كنا نعتقد أن القوة تتمثل فى الاقتصاد والمال والقوى العاملة والأرض والمواد الخام وكان أحد معايير قوة الأمم هو إجمالى الدخل القومى GNP ويوضح الجدول الإحصائى نصيب الفرد من الدخل القومى بالدولار فى بعض الدول(*). فقد كانت الدول تصنف دائماً وفقاً لدخلها القومى، أما الآن فقد اختلف هذا المعيار وأصبح الرصيد القومى المعرفى "CNIR" Cognitive National Information Reserve هو المعيار الحقيقى لقوة الأمم ومؤشراته ليست عدد المصانع ولا البنوك ولا الأرصدة الموجودة فى الخزائن وإنما هى فى عدد العلماء والمهندسين والفنيين فى البحث والتنمية، ومتوسط عدد سنوات التعليم بالنسبة للفرد على مستوى الدولة، وعدد الاكتشافات العلمية الجديدة وحقوق الملكية الفكرية المسجلة للمخترعين والموهوبين والمبدعين، وعدد الدوريات العلمية الصادرة، والبحوث العلمية المنشورة، والقدرة على استيعاب واستخدام التكنولوجيا الجديدة، وأجهزة الحاسب الآلى، وخطوط التليفونات، والتليفونات المحمولة، وأجهزة الراديو، وأجهزة

(*) أنظر جدول رقم (١) بملحق الجداول صفحة (٢١٦ : ٢١٧)

التليفزيون، واستخدام الأفراد لوسائل الإعلام المختلفة، واستهلاك الفرد من الكهرباء، والجرائد اليومية، ونسبة الملتحقين بالتعليم العالى والجامعى، والحاصلين على الماجستير والدكتوراه. ولعل الإحصاءات الملحقة تبين لنا جانباً من موازين القوة المعاصرة وقياساً لأهميتها النسبية.(*) فالعلم يتقدم فى مجالات خطيرة جداً تشكل سبقاً كبيراً لمن يملك ناصية هذا العلم وتشكل تهديداً أكبر لمن يفتقد القدرة إلى هذا العلم.

واليوم العلاقات السياسية والقدرة النسبية لكل دولة هى عملية موازنة دقيقة بين الإمكانات التى تملكها كل دولة.. وحسابات القوى متوافرة الآن على أجهزة الكمبيوتر، وهى حسابات دقيقة لموازين القوى القائمة وليست فى حاجة إلى إثباتها فى تجربة عملية فى ميادين القتال.. ومحصلة القوى لأى دولة هى فى هذا الرصيد القومى المعرفى وهو الذى يشكل القدرة التفاوضية لكل دولة ومكاسبها السياسية. لقد أصبح النظام السائد فى العالم هو ما يسمى بالقطب الأوحد أو ما يسمى بالقوة العظمى الوحيدة، فقد استطاعت أمريكا بما تملك من رصيدها القومى المعرفى ومن ثروات طبيعية هائلة أن تحقق تقدماً على غيرها من الدول، وأصبحت القوة المسيطرة تستطيع أن تفرض على العالم أجمع

(*) أنظر الجداول (٢-١٥) بملحق الجداول صفحة (٢١٨ : ٢٣٢).

قوانين وقيماً وسلوكيات وأفكاراً تتناقض كثيراً مع الشرعية الدولية والقانون الدولى.

ولعل النظام المؤسسى الذى يحكم العالم اليوم هو الذى وضع قواعد هذه اللعبة وكما قال أحد المفكرين الأمريكيين "نوم تشومسكى" " Noam Chomsky " (إن لا شىء جديدا فى النظام العالمى الجديد).. القوة وحق التدخل المباشر للأقوياء، والعقلانية الاقتصادية والشرعية الدولية وحقوق الإنسان والديمقراطية للضعفاء. وفى إطار هذا النظام علينا الالتزام بالعقلانية الاقتصادية والشرعية الدولية، وعلينا مراعاة حقوق الإنسان، بينما أعفى العالم المسيطر نفسه من هذه الالتزامات جميعها.. هذا العالم الذى استمد قوته من العلم والمعرفة ومن اقتصاده الذى يفرضه على الناس وليس أمامنا الآن إلا أن ندخل هذه المباراة فى ظل القواعد التى وضعها لنا آخرون والخيارات المتاحة أمامنا هى أن نستمر فى هذا السباق فى إطار قواعد قد نعتبرها ظالمة، ونظم قد لا نعتبرها عادلة، ولكن نحاول أن نستجمع إرادتنا ومواطن القوة فينا وأن نتقدم إلى الصدارة. فلا خيار أمامنا إلا أن نتسلح بمواطن القوة المعاصرة والمتطورة التى توجد فى العالم وهى قوة العلم والمعرفة. ولعل ما يحدث الآن من ضغط علينا وتحجيم لقوتنا يكون فيه رجاء وحدتنا.. فالأزمة تلد الهمة.

وأمام امتلاك أطراف معينة فى العالم اليوم لقوة هائلة وما يحدث من مهازل فى الشرعية الدولية ومأساة للقانون الدولى ومثلها

الصارخ النزاع العربى الإسرائيلى والمتمثل فى الانحياز المطلق للجانب الإسرائيلى بسبب قوة الوكالات اليهودية وسيطرة اللوبى الصهيونى على كثير من المؤسسات ومراكز اتخاذ القرار فى بعض الدول الغربية، هذا فضلاً عن إشاحة الرأى العام العالمى عن مواجهة غطرسة إسرائيل وهو تجسيد لمهزلة هذه الشرعية الدولية، وأمام هذا فإنه يتحتم علينا عدم التناطح مع هذه الأطراف وعدم الدخول فى منازعات لا طائل منها الآن.

فكثير من الدوائر الإسرائلية تتصرف بمنطق العصابة التى تتخفى وراء الدولة.. والقطب الأعظم يبدو للكثيرين وكأنه ارتضى لنفسه أن يقوم بدور البلطجى لحساب مافيا إجرامية.. إن الممارسات الاسرائيلية اليومية وما تشكله من انتهاك مشين لكل حقوق الانسان واستهانة بكل القوانين والأعراف الدولية واعتداء على كل المقدسات والمحرمات يشكل أسلوباً إجرامياً لا إنسانياً يستهدف ترويع الأبرياء والتنكيل بإخوان عرب عُزَّل من السلاح وإساءة متعمدة للكرامة العربية، وهو ما سيكون له أثره فى بناء ثقافة للعنف والكراهية ونزيف مستمر للدماء والعنف المضاد وثأراً حتمياً لمن انتهكت كرامتهم وامتنهت إنسانيتهم وقتل آباؤهم وأطفالهم، وهو ما يشكل فى أحسن الفروض تركة مثقلة بالأحقاد للأجيال القادمة.

إن الذين يحكمون إسرائيل يتصرفون اليوم فى إطار غطرسة القوة بحماقة ضد مصالحهم، ويبنون وبإصرار ثقافة عنف تجاه

مواطنيهم والأجيال القادمة من بعدهم. إنهم يتمادون فى صلفهم وعجرفتهم! وهم يلعبون بالنار فى المنطقة العربية، ويعملون على إثارة روح المقاومة والجهاد التى جيء بهم لإخمادها! وقد قال الله تعالى عنهم "الله يستهزئ بهم ويَمُدُّهم فى طغيانهم يعمهون".

ولكننا قبل ذلك وبعده يجب أن نسأل أنفسنا الآن سؤالاً يفرض نفسه وبقوة ، هل الموقف المأساوى فى المنطقة العربية والعربدة الإسرائيلية نتيجة اختلال موازين القوة.. هل كان هذا تحولا مفاجئا ليس له مبرر أم ضربة حظ طائشة أم هو نتيجة منطقية لجهد مبذول وتخطيط محكم لطرف عرف أهدافه وأدرك قواعد اللعبة ودرس جيداً مراكز القوة وصنع القرار، ووسائل التأثير المتاحة.. طرف حدد وخطط ونفذ، وطرف آخر فقد الرؤية فى كثير من الأحيان وحلق فى الخيال، واستغرق فى أحلام اليقظة وانخدع بسراب الوهم وخداع النفس، وأهدر الوقت والفرص وانغمس فى سفه التصرفات والممارسات، واستسلم للخداع النفسى واستراح للرفاهية والانغماس فى الملذات.. طرف أجاد شرح قضيته وسوقها تسويقاً علمياً وبذل الجهد اللازم لتنفيذ مخططه.. وطرف اكتفى فى أحيان كثيرة بالمنى والأحلام والشعارات والمزايدات بل وتكفل فى كثير من الأحيان بتشويه صورته

ومسخ قضيته والإساءة إلى مبادئه وتأكيد ما يلصقه به الطرف الآخر.

ولابد فى هذا السياق أن نعترف وبكل أسف أن نفراً وجماعات تنسب نفسها للإسلام زوراً وبهتاناً وتحسب على الإسلام والمسلمين ظلماً وعدواناً، قد أساءت إلى الإسلام والعرب بجهلهم وقسوتهم وضيق أفقهم واستهانتهم بقيم الإسلام السمحة فى الرحمة والتسامح وإعمال العقل بأكثر مما كان يحلم به أعدى أعداء المسلمين والعرب.

إن الكثيرين لا يدركون أن حالة توازن القوى والردع المتبادل بين القطبين الأعظم فى الماضى قد عادت فى ثوب جديد وكان يجب أن نتوقع حدوثها فى إطار ثورةٍ المعلومات والتكنولوجيات التى أعطت أفراداً وجماعات وشعوباً صغيرة إمكانيات أسلحة الدمار الشامل فى مواجهة الدول الكبرى مما يحتم ضرورة الاتفاق على أن الاتجاه إلى الشرعية والقانون والعدل هو البديل الوحيد عن الهيمنة والسيطرة وغرور القوة.

وقد آن الأوان أن يتحول الغضب إلى طاقة والحزن إلى عمل، والإدانة والشجب إلى فعل مسئول وتخطيط محكم فى مواجهة الوضع المهين الذى انزلقنا إليه، وقبل ذلك يجب أن نعد العدة ، وأن نعترف أننا جميعاً قد أخطأنا وقصرنا وقد أحسنا الظن بغفلة لا نُحسد عليها، وقد أسأنا قراءة لغة العالم الجديد بجهل فاضح

كما أهملنا فى الاتعاظ بالتاريخ بخفة بالغة. وكما يقول المفكر "جورج سنتيانا" فإن الذين لا يستفيدون من التاريخ محتم عليهم أن يعيدوه.

إن السياسة هى فن تحقيق الممكن ولكن الممكن لا يتحدد بالشعارات والأوهام ولا يتحقق بالمنى والأحلام، وإنما يصير الممكن واقعاً بعمل يستند إلى قوة وإلى جهد يعتمد على طاقة. والقوة والطاقة فى زمننا هما العلم والمعرفة.. الأرصدة المالية حصيلة لها.. والجيوش تجسيد مؤسسى لقوتها.. والأسلحة تطبيقات عملية لعلومها وتكنولوجياتها. من هنا كان من المهم أن نعرف ما هى معايير قوة المعرفة فى زماننا.

وسيذكر التاريخ المنصف للرئيس مبارك أنه حاول واجتهد ودعا وبادر.. استشرف وأدرك مبكراً قواعد العلاقات الدولية الجديدة.. لم يكتف بالشجب والرفض ولم يلجأ إلى الشعارات وإلهاب المشاعر ولم يستسهل الانسحاب والمقاطعة، ولم يلذ بالصمت أو التجاهل، وإنما استمر فى الحوار شارحاً ومحاوراً، موضحاً ومصارحاً، ناقداً ومواجهاً، ولكنه أبقى على شعرة معاوية لعل بقية الأطراف تفهم يوماً من الأيام، ولعل الآخرين يستعيدون صوابهم قبل فوات الأوان، يهديهم العقل والمنطق والتاريخ إلى رؤية مستقبلية متجاوزة لسياسة الأمر الواقع، وتترفع عن غطرسة القوة.

وسيُحْسَب له على كل حال أنه أدرك مبكــراً مصـــادر القــوة الحقيقية وعمل على أن يدعم وطنه برصيدها. وكان أول من ركز على العلم والتعليم كدعامة لأمن مصر القومى وكمــدخل وحيد للخريطة العالمية الجديدة.

الجزء الثالث

زلزال الحادي عشر من سبتمبر
التوابع ..المعقبات ..النتائج

- عالم جديد وملامح ومعايير جديدة
- ظلال الماضي وسيطرته على الحاضر والمستقبل
- العنف والإرهاب أم العدالة والشرعية
- السلام أمل الإنسانية وهدف الأديان
- نحن وأحداث ١١ سبتمبر
- زمن الهوان

الفصل الأول

عالم جديد وملامح ومعايير جديدة

نحن الآن نعيش فى عالم جديد بدأ مع مطلع الألفية الثالثة، ولكننا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ نواجه منعطفاً خطيراً.. فالعالم الذى كان فى الألفية الثانية وما قبل ١١ سبتمبر يختلف عن العالم بعد ذلك، وواضح جداً أننا أولاً فى نظام عالمى جديد تسيطر فيه قوة واحدة على العالم وتلك القوة وإن تجسدت فى شكل دولة .. فهى فى الحقيقة كيان مؤسسي .. بعض الناس يطلقون عليه القطيع الإلكترونى ذا الألف ذراع وأسميته التنين الإلكترونى ذا الألف مخلب .. وأننا ثانياً فى إطار الاحتكارات العالمية والمؤسسات الدولية المعبرة عن نفسها فى شكل مؤسسات مهنية أو فى شكل إعلام مسيطر على العالم أو لوبى يسيِّر الأمور.. فتلك مسميات لأشكال مختلفة لكنها فى النهاية تعبر عن حقيقة مؤسسية واحدة.

إننا بعد أحداث ١١ سبتمبر أصبحنا نعيش فى عالم اتخذ القوة منطقاً وأسلوباً للحياة، وأصبح ما يحدث حولنا فى كثير من الأحيان يختلف مع قواعد المنطق وقواعد الشرعية الدولية وقواعد التراث الإنسانى الذى تعودنا على احترامه. وفى ظل تلك الأحداث ووفقاً لوجهة النظر الأمريكية فإن العالم قد انقسم إلى كتلتين: كتلة العالم المتحضر وكتلة الدول التى تساند الإرهاب، وبدأت الولايات المتحدة

الأمريكية تحارب الإرهاب بكل قوة مما دفع حلف الأطلنطى للإعلان عن وقوفه معها فى تلك الحرب للرد على أحداث ١١ سبتمبر. وطالبت الولايات المتحدة العالم كله بالوقوف معها فى معركتها السياسية والعسكرية والاقتصادية ضد جماعات الإرهاب وما أسمته بالدول المارقة، كما أن الركود الذى اعترى الاقتصاد الأمريكى من جراء هذه الأحداث قد ارتد إلى نحر دول العالم كله بحكم ما للولايات المتحدة من آليات تجعلها تتحكم فى اقتصاديات الآخرين، فإذا كان العالم كله سيدفع فاتورة ما جرى لأمريكا بحكم قوانين العولمة فإن من حق أى دولة أن تطالب بأن تكون العولمة مساواة في السراء والضراء وليس فى اتجاه واحد فقط وأن يعم نفعها الجميع بأقصى درجة ممكنة من المساواة والعدالة، فلا تكون لصالح القطب الأوحد فى المحل الأول.. يذهب جل مغانمها إليه فى حين يتحمل الآخرون خاصة البلدان النامية مغارمها.

والواقع أن الولايات المتحدة قد تعرضت للحوادث الإرهابية في وقت كان فيه الاقتصاد الأمريكى يمر بمرحلة تباطؤ واضح منذ نهاية عام ٢٠٠٠ وكانت هناك توقعات متزايدة بأن تشهد فترة الربع الأخير من عام ٢٠٠٢ (أكتوبر– ديسمبر) بداية التخلص تدريجياً من هذا التباطؤ تمهيداً لدخول الاقتصاد الأمريكى مرحلة نمو جديدة بدءاً من العام التالى وكان السند الأساسى لهذه التوقعات هو ما اتخذه البنك الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى من إجراءات

توسعية فى السياسة النقدية، وبالطبع فإنه مع وقوع الأعمال الإرهابية التى تعرضت لها كل من نيويورك وواشنطن تأكد الجميع من أن حالة الاقتصاد ستتدهور أكثر فأكثر وأن الركود أصبح أمراً واقعاً. وربما كان الخلاف يدور فقط حول مدى عمق هذا الركود والفترة التى يمكن أن يستغرقها حيث كان البعض يرى أن الأحداث لن تكون لها آثار اقتصادية طويلة المدى وأن قوة الدفع الأمريكى ستعمل على التخلص من هذه الأزمة سريعاً.

ولقد كشفت أحداث الحادى عشر من سبتمبر وما تلاها من تداعيات عن قصور ووهن بحضارة بعض الدول المتقدمة، فالتطور الصناعى والتكنولوجى فيها قد أدى إلى نضج المجتمع سطحياً وليس فى أعماقه، وأن التقدم التكنولوجى سبق بكثير التقدم الثقافى أو النمو الثقافى وأن ثقافة المجتمع كانت مجرد قشرة رقيقة سرعان ما تكسرت عند أول صدام وأول ضغط.. المجتمع الأمريكى الذى كان يقدس الحريات الشخصية ويحارب التدخل فيها ويقدس حرية الرأى ويرفض التفرقة.. المجتمع الذى كان يعتبر هذه المفاهيم مقدسات دستورية وصدرت فيها أحكام خالدة من المحكمة العليا تخلى فى أحيان كثيرة وبسرعة مذهلة ودون حرج عن كثير من ضمانات هذه الحريات والحقوق فأباح التنصت والاعتقال بمجرد الاشتباه والمحاكمة بلا ضمانات، وتورط فى ممارسات تجسد التفرقة

العنصرية والقسوة وعدم التسامح والأمر بالاغتيال.. لقد تكسرت القشرة الرقيقة أو الورنيش الإلكترونى أو التكنولوجى أو الماكياج الذى كان يغطى قصور النمو الثقافى وظهر الجوهر وهو أن المجتمع لم يتخل كلية عن ثقافة رعاة البقر.. وهو موقف يتناقض مع ما بشر به مفكرون أمريكيون أثروا الفكر الإنسانى بثوابت الديمقراطية وحقوق الإنسان، وحرية الرأى وحق الاختلاف والتسامح.

ولعل مراجعة متأملة للمواقف والاتجاهات التى اتخذتها بعض الدول المتقدمة حيال الشرعية الدولية، ومبادئ العدالة والقانون، وحقوق الإنسان، والانفعالات التى انساقت إليها أطراف عديدة، وكشفت فى لحظات صدق عابرة عن اتجاهات عنصرية من تهديد بحروب صليبية، وهجوم على الإسلام، ورغبة عارمة فى التدمير والإبادة، وإفراط فى استعمال القوة - تعكس جوهراً دفيناً لم يتخلص كلية رغم التقدم التكنولوجى والعلمى الهائل من ثقافة شكلت يوماً من الأيام مجتمعاً من طريدى العدالة والمغامرين والمتطرفين احتل أراضى جديدة تاركاً وراء ظهره بخفة متناهية جذوره وهويته.. متخلياً عن أهله وعشيرته.. متحللاً من تاريخه ووطنيته.. ثم راح فى جرأة بالغة يستولى على الأرض الموعودة، متخطياً كل العقبات بالحديد والنار، قابضاً على كل ما تصل إليه يده عنوة فى وضح النهار.. فإذا ما كانت الغنائم أو المزارع مملوكة

لسكان أصليين أو كانت الأرض التى تغطى البترول والـذهب عامرة بالزرع أو الضرع، مسكونة ببشر بدائيين- فلا بـأس من إزاحتهم والـتخلص مـنهم، ولا تثريـب علـى إبـادتهم واقتلاعهم من جذورهم.. فشريعة الغاب هى الحق والقانون.. ووضع اليد هو دليل الملكية وسند الشرعية قبل كل اعتبـار. المال والذهب كان مقصـدهم ومبـدأهم، والعنـف وسـيلتهم وشريعتهم، وما اغتصبوه من أرض اعتبروه وطـنهم وملكـاً خالصاً لهم. ولا بأس من صلوات شكر لعـل الـرب يبـارك عملهم، وأعياد واحتفالات تمجد فعلتهم وتزين تاريخهم.

ومن سخريات القدر أن هذه المسرحية المأساوية تتكـرر فى العقود الأخيرة بمخرج جديد، وبإخراج عصرى، ومسـمى مبتكر. ولا بأس من حائط مبكى وإحياء هيكل وصلوات شـكر مجددة، ومراسم واحتفالات كبرى تمجيداً لواحة الديمقراطيـة الجديدة فى الأرض الموعودة.

وهكذا بدا أن هـذا التطـور العلمـى والتكنولـوجى السـريع فـى بعض أجزاء العالم الغربى قد صاحبه قصور ذاتى فى تغيير السلوك والعادات وردود الأفعال بنفس المستوى، وأنه لا يزال يتمسك بقيم مختلفة وكأنه يعانى من حالة شيزوفرنيا سياسـية وثقافيـة. وعلـى سبيل المثال فبالرغم من التقدم العلمى الهائل فلا زال الكـثيرون فـى الـدول المتقدمـة يعتقـدون فيمـا يُطِلـق عليـه بعـض المفكـرين "العلم

المزيف" Pseudoscience، وهناك حوادث تاريخية تدل على ذلك فمثلاً تبنى أحد رؤساء فرنسا مشروعاً للبحث عن مصادر الطاقة والبترول فى الفضاء "إلف اكويتان" Elf-Aquitaine Project.. وفى ألمانيا توجد مجموعات تستخدم أشواكاً حديدية للكشف عن إشعاعات مسببة للسرطان تعجز عن تحديدها الأجهزة العلمية الحديثة!! وعند الشعب البريطانى فإن الإيمان بالأشباح أصبح ظاهرة قومية.. وفى اليابان مائة ألف يؤمنون بقراءة الطالع.

ولكن تبقى بعد ذلك ملاحظتان: الأولى أن ثمة ارتباطاً واضحاً بين البعد الثقافى ورسوخه تاريخياً وبين درجة نمو المجتمع وقيمه الدفينة وسلوكه فى الأزمات، فالدول العريقة بصفة عامة يكون فيها النمو الاجتماعى والثقافى أكثر تجانساً وأبعد عمقاً.. والثانية أنه من الخطأ أن ننسب التطرف والرغبة فى الهيمنة إلى مجتمع بأسره أو إلى هوية محددة أو ديانة بذاتها. والثابت أنه فى كل بلد توجد رموز تؤمن بشريعة الغاب وتسيطر على أذهانها أفكار ومعتقدات لا تتفق بالضرورة مع العلم أو العدل أو المبادئ الإنسانية. ولعل ذلك يشرح إلى حد ما لماذا فى إطار أزمة الشرعية الدولية وإشاحة الرأى العام العالمى عن كثير من أوجه الظلم لا زالت توجد ردود أفعال أكثر عقلانية وأقرب إلى العدالة والشرعية فى بعض الدول المتقدمة ذات الثقافة العريقة.

وإذا تجاوزنا كل هذا ومع رفضنا القاطع لما حدث من اعتداء على الشعب الأمريكي وقتل آلاف الأبرياء، ومع تقديرنا الكامل لحجم الجرح الذى أصاب الكرامة الأمريكية وأثار شعور المواطنين بشكل غير مسبوق، فإن ما حدث على أرض الواقع للديمقراطية بعد ١١ سبتمبر فى أمريكا هدد بشكل واضح المبادئ المقدسة التى كان يؤمن بها الشعب الأمريكى فى حرية التعبير والوقاية من التنصت وفى منع الاعتقال وفى حرية التجمع وحرية الرأى، كلها سقطت عند أول أزمة حقيقية شعر بها هذا المجتمع الذى خاض معارك ضارية طوال تاريخه للحفاظ على انطلاق الفكر وحقوق الإنسان وحق الآخرين فى الاختلاف. وأصبحت هناك رقابة كاملة على المكالمات.. وصارت حرية الاجتماع غير مكفولة، وصدرت قوانين تبيح تعقب من يشتبه فى أنهم مجرمون حتى خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية. كما أصبحت هناك محاكمات استثنائية دون ضمانات قضائية.

ولعل هذا يعيد إلى الأذهان الدعابة التى قالها تشرشل يوماً وهى أن "الشعب الأمريكى وقادته فى معظم الحالات يصلون إلى الحل السليم بعد أن يفحصوا أو يجربوا كل الخيارات الأخرى!!" وهو أمر فى حالتنا هذه قد يحدث بعد ضياع الوقت وفوات الأوان. لذلك فإن المأمول ألا ينساق هذا الشعب العظيم - الذى استطاع برغم قسوة المنشأ وعنف

البداية أن يقيم حضارة عظيمة اتسمت بقيم إنسانية رفيعة وأنجبت مجموعة من خيرة المفكرين والمبدعين والمصلحين الاجتماعيين وأثرت الديمقراطية والإنسانية بأعلام من أمثال تيودور روزفلت Theodore Roosevelt، و لينوس كارل بولنج Linus Carl Pauling، ومارتن لوثر كينج Martin Luther King، وجون أدامز John Adams، وجون رولز John Rawls - فى ممارسات من شأنها أن تحدث مضاعفات قد لا يمكن علاجها.. ويجب أن تفكر الولايات المتحدة فى أسباب تزايد الكراهية ضدها بعد أن كانت دولة تتمتع دائماً باحترام وحب كل المطحونين والمقهورين والمظلومين، وأن تعالج المواقف المأساوية بمنطق عقلانى بعيداً عن ردود الأفعال العاطفية الناتجة عن الإحساس بجرح الكرامة، وبعيداً عن الإسراف فى استعمال القوة أو مسلسل العنف ونزيف الدمار.

الفصل الثانى

ظلال الماضى وسيطرته على الحاضر والمستقبل

وفى خضم هذه الأحداث وبداية الحرب فى أفغانستان- تحت راية محاربة الإرهاب وتنظيم القاعدة الذى أكدوا أنه سيهدد الحضارة الغربية- صدرت تصريحات من عدد من رؤساء الغرب يجب أن نتوقف عندها عندما تكلموا عن "حملة صليبية جديدة" وتهجموا على الإسلام. فهل كانت هذه التصريحات مجرد زلة لسان أم أنها كانت غفلة تظاهر أو سقوط قناع؟ الحروب الصليبية المعاصرة وثنائية المعايير السائدة الآن والوضع الحالى للأمة..كل ذلك جاء على زلة لسان!

إن هذه المقولة عن حرب صليبية وضرورة مقاومة محور الشر تذكرنى بالحرب الصليبية الأولى التى جاءت تحت شعار " يا مسيحيى الغرب اتحدوا لتحرير مهد المسيح " واليوم نقول " يا ديمقراطيى الغرب اتحدوا لمواجهة الإرهاب وانقاذ واحة الديمقراطية وهى إسرائيل، ومقاومة العرب والمسلمين والإرهابيين" وهو قول ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، ظاهره نشر الديمقراطية والحرية والعلم والثقافة والفكر فى العالم، وباطنه إضعاف الهوية العربية والإسلامية وهذا يؤكد سيطرة الماضى على الحاضر والمستقبل.

في المرة الأولى كانت كنوز الشرق هى الهدف الحقيقى.

فى المرة الثانية كان بترول الشرق هو الغاية الكبرى.

ولعل هذا يجرنا للحديث عن الحروب الصليبية القديمة وأوجه الشبه بينها وبين الحروب الصليبية المعاصرة فقد جاءت جيوش الصليبيين إلى الشرق الإسلامى وكونوا إقطاعيات، واحتلوا أرض فلسطين وبيت المقدس.. إلى أن تم طردهم وإخراجهم من قلعة عكا بفلسطين وتطهير الأرض العربية منهم ومن أطماعهم بعد حوالى قرنين من الزمان. إذن فقد سبق الاستعمار الأوروبى الحديث للعالم العربى تاريخ طويل من الاستعمار يمكن أن نصفه فى خصائصه ودوافعه وتركيبه " بالاستعمار الوسيط "[1]. فقد كان يتخفى وراء الدين فى شكل أو آخر، ولم يكن هذا الاستعمار يأتى فقط من جانب دين آخر غير الإسلام، بل كان -ويا للغرابة- يتستر أيضا تحت رداء الإسلام نفسه.

ولهذا الاستعمار الوسيط بدوره أصول وطلائع قديمة، لا نغالى إن تتبعنا أول خيوطها إلى العصور الكلاسيكية. فكل من الإغريق والرومان خرج للاستعمار البحرى عبر البحر المتوسط حيث كانت الوجهة الجنوبية فى الشرق الأدنى والأوسط هى المجال الاستعمارى الرئيسى. وظل الاستعمار الإغريقى قرونا حتى ورثه

١- الدكتور جمال حمدان: الاستعمار والتحرير فى العالم العربى.

الاستعمار الرومانى رافعاً شعار " بحرنـا **Mare Nostrum** " أولاً ومحققاً ما عرف فيما بعد " بنظرية وحدة البحر المتوسـط ". وكـان هذا بداية عملية الشد والجذب، أو لعبة شد الحبـل **tug-of-war** التاريخية، التى شهدها ساحلا البحـر المتوسط، وأصبحت ملمحاً سياسياً أساسياً منذ ذلك الحين فى تاريخ حوض البحر المتوسط. ثـم حدث انقلاب فـى ميـزان القـوى، والسبب فـى ذلـك الانقـلاب هـو الفـارق الحضـارى الجـديد فقـد كان هـذا بدايـة الأوج الحضـاري و" العصــر الذهـبى " للعــالم العــربى بينما كانت أوربـا تعـيش " عصـورها المظلمـة " وبينمـا كـان العـالم العربـى واسـطة الـدنيا ووسيطها التجارى الأول، كانت أوروبا على حافة المعمـورة وتحـت رحمة المواصلات العربيـة. هكـذا طغـى المد العربـى علـى السـاحل الشـمالى فأخضـعه أو علـى الأقـل أخضـع القطاعـات الإسـتراتيجية الحرجـة فيه وهى كل جزر البحر شرقا وغربا ابتـداء مـن " قـبرص وإقـريطش " حتـى مينورقـة وميورقـة، ثـم الصـقليتان " صـقلية وجنوب شبـه الجزيرة الإيطالية"، ومعظم أيبريا، بل وزحف شمالاً إلى قلـب فرنسـا وأرسـل لسـانا إلى سويسـرا. وبهـذا تحـول البحـر المتوسط إلى بحيرة عربية مغلقة وخضع جنوب أوربا لكماشة عربيـة فكاها تخوم الأناضول فى أقصى الشرق وأيبريا فى أقصى الغرب.

ولكن هذه الكماشـة لم تلبـث أن تراخـت ثـم تفككـت وارتـدت الموجة العربيـة ثانية إلى السـاحل الجنـوبى. وقـد شـاءت أوروبـا أن

تجعل من هذا اللقاء حربا دينية ومن البحر المتوسط "خندقا" moat عميقاً بين المسيحية والإسلام وأن تواصل "المبارزة" duel التاريخية عبر "كَبَاريه المتحركة" draw bridges المثلة في جزره ومضايقه الاستراتيجية. ومن المفيد لنا أن نحفظ في أذهاننا دائماً هذه الصورة الرمزية للموقف، ليس فقط لأنها تعبر عن استراتيجية العصور الوسطى بلغة وفنون العصور الوسطى، وإنما أيضاً لأنها تشبيه أثير حتى اليوم عند الكتاب والمؤرخين الأوربيين.

ومن ثم بدأت الحروب الصليبية التى تتألف من عدة موجات تشنجية موزعة على بضعة قرون. ومن الثابت تاريخياً أن الدافع الدينى لم يكن إلا قناعاً مذهبياً لاستعمار مادى بحت، وأوضح دليل هو أن أكبر مؤيدى الحروب الصليبية - بل أكبر تجارها - لم يكونوا سوى كبار تجار البندقية وجنوة وغيرها ممن كان لهم مصلحة مادية حاسمة في تجارة الشرق. وهنا نتساءل هل كانت أول وأطول "حرب خنادق" فى التاريخ تتم على نطاق إقليمى أو شبه قارى؟

ولقد تكسرت سيوف الصليبية فى النهاية على أسوار القلعة العربية فى الشام ومصر إذ لم يستطع الاستعمار الصليبى أن يثبِّت أقدامه إلا فى عدة ممالك ممزقة مبعثرة من ممالك الجيب فى الشام والأراضى المقدسة لبضعة عقود متقطعة. وعاد البحر المتوسط خندقاً راكداً إلا من مناوشات القراصنة والمغامرين. وفى ظل هذا الهدوء

المؤقت انغلقت أوروبا على نفسها وعكفت تتعلم من الدرس الذى نالته من الحروب الصليبية والذى لم يكن درساً استراتيجياً فحسب وإنما كان أساساً درساً حضارياً. فقد احتكت أوروبا الوسيطة المظلمة بحضارة العرب المشرقة واستعارت منها ما وسعها، ثم أخذت تنميها وتعمقها فكانت النهضة الأوروبية التى بدأت رحلة التطور التى ستصل بنا فى النهاية إلى الاستعمار الأوروبى الحديث .

وكان انتصار العرب فى الحروب الصليبية نتيجة للوحدة العربية التى تحققت فى القرن الثانى عشر وبسببها، وعندها أدرك الصليبيون أن لا مقام لهم فى أرض العروبة، فتحولت مكاسبهم إلى خسائر وانقلبت انتصاراتهم إلى هزائم، حتى انتهى الأمر - فى نهاية القرن الثالث عشر - بطردهم شر طردة من بلاد الشام. وسيأتى عن قريب - إن شاء الله - اليوم الذى يتمكن فيه العرب من إقامة دولة فلسطين التى عانت كثيراً من أصناف العذاب والقهر والمهانة وذلك بقوة الإرادة وبالوحدة، وبالعمل والعلم وقيم التقدم التى هى سند الحق الوحيد فى هذا الزمن.

من لا يستفيد من التاريخ يكرره

إن المعارك الصليبية لم تكن مجرد حروب. لقد كانت بالنسبة للوطن العربى تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات... تجربة أثبتت للعرب جميعاً فى المشرق والمغرب أن وحدتهم هى الملاذ الذى يلوذون به وقت الخطر، والعاصم الذى يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين.

فقد كانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوروبى مغامرة فاشلة كلفته كثيراً من التضحيات فى الأرواح والأموال التى ذهبت عبثاً لأن منطق العدوان لا يمكن أن ينتصر وسياسة البغى لا يمكن أن تنجح فى أرض عربية عُرف أهلها بالحرص على حريتهم وحرية بلادهم.

إن التجارب التى تمر بها الأمة العربية اليوم ليست جديدة عليها، فقد سبق أن تعرضت هذه الأمة للأساليب نفسها من المؤامرات والدسائس والأطماع فى عصر الحروب الصليبية وعلينا أن نستفيد من هذه التجارب ونتعظ من دروس الماضى ونأخذ منها عبرة تعيننا على التغلب على أفدح خطر يواجه الأمة العربية اليوم وهو خطر إسرائيل ومَن وراءها.

لم يعد خافياً على أحد التعاون الوثيق بين الصليبيين الجدد – وهم نبت غريب لدعوة السيد المسيح الخالدة فى المحبة والسلام –

والصهاينة لضرب المسلمين والعرب.. فمن المعروف أن الصليبيين والصهاينة بينهم عداوات تقليدية قديمة وأخرى وسيطة وثالثة حديثة.. وكثيراً ما اصطدموا.. غير أنهم أحياناً يتحالفون ويتعاونون ويتقاربون كلما كان العدو المشترك هو الإسلام والمسلمين.. والتاريخ شاهد على ذلك فى العديد من المواقف فى التاريخ القديم والوسيط والحديث.

وإذا كانت إسرائيل قد تمكنت اليوم بمساندة الغرب من اغتصاب بقعة عزيزة على كل عربى من صميم وطننا، فإن هذه التجربة ليست هى الأولى من نوعها فى تاريخ الأمة العربية. ذلك أنه حدث منذ تسعة قرون تقريباً أن خرجت جموع كثيفة من غرب أوروبا أطلقت على نفسها اسم "الصليبيين" - كما سبق أن أوضحنا - وجوهر المسيحية والصليب منهم براء واستطاعت أن تقيم لنفسها مُلكاً فى نفس البقعة من بلاد الشام، ومن هذا المركز المتوسط فى قلب الوطن العربى أخذ الغزاة الغاصبون يعملون على مد نفوذهم وسيطرتهم، تارة إلى أطراف العراق وطوراً إلى أطراف مصر وشبه الجزيرة العربية.[1]

والواقع أن الباحث لا يسعه سوى أن يسلم بالتشابه الشديد بين الظروف التى أقام فيها كل من الصليبيين وإسرائيل دولتيهما فى

١- الدكتور سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية.

نهاية القرن الحادى عشر وفى القرن العشرين - فى ذلك الجزء الحساس من جسم الأمة العربية. ففى كلتا الحالتين رفع المعتدى الغاصب رايات الحق ورسالات السماء وهو يخفى فى جعبته رغبته الدفينة فى اغتصاب الأرض والاستيلاء على حقوق الضعفاء، مستغلاً انقسام العرب وحكامهم فى الشرق الأدنى إلى قوى متنافسة لا يربط بينها رباط الإحساس بالخطر، وفى كلتا الحالتين ظهر رد الفعل قوياً في صفوف الأمة العربية؛ فلم يرض الضمير العربى عن ذلك الوضع، ولم يجد الرأى العام العربى ملاذاً يعصمه من الخطر إلا الوحدة، فارتفع صوت المخلصين ينادى بوحدة الصف ووحدة الهدف لاستخلاص أرض العروبة من مغتصبيها.

هذا هو التعاون الوثيق بين إسرائيل وصليبيى القرن الحادى والعشرين تحت دعاوى محاربة الإرهاب، وجماعة القاعدة والمتطرفين الذين سيهددون الحضارة الغربية.. وتناسوا أن الإرهاب لا وطن له ولا انتماء لديه وأننا فى الشرق وفى الأمة العربية وفى مصر على وجه الخصوص قد اكتوينا بناره، وأننا دفعنا من فاتورة الإرهاب ما أثر على اقتصادنا القومى، وتحملنا من قسوته ما روع الآمنين وتصدينا لمحاربته واقتلاعه بما لم تفعله دول كثيرة، ولازلنا نحذر من أخطاره وما زال عزمنا على التصدى له فى إطار الشرعية الدولية قائماً وبإصرار. وهنا لا نستطيع أن نفهم ما جاء على لسان بعض

أقطاب العولمة- كما سبق وأن أوضحت- أنها حرب صليبية.. وفى اليوم التالى اعتذروا وقيل أنها زلة لسان.. وإذا ضربنا بمشرط التحليل فى عمق التعبير - الذى سُمى زلة لسان - نصل إلى أن الهدف هو إضعاف الهوية واللغة والثقافة والفكر المخالف للعولمة أو القطب الأوحد فى العالم.

ولعل هذا يعيد إلى أذهاننا بعض الحقائق التاريخية - التى لم يستفد منها البعض - فالدول الكبرى لا تشعر بالخجل عندما تتبع مبادئ[1] :" *افعل ثم برر* " أى انتهز الفرصة الملائمة لتسيطر على الدول الفقيرة وأما التبرير فيكون بعد التدبير. ومبدأ " *إذا فعلت فأنكر* " بمعنى أنه إذا تسببت القوى العظمى فى دفع الشعوب الفقيرة إلى اليأس والعصيان فعليها أن تنكر أن الذنب ذنبها ولها أن تنسبه إلى تخلف هذه الشعوب وأخطاء حكامها وخطرهم على العالم. ومبدأ " *فرق تسد* " أى إذا اجتمعت الدول الفقيرة على خيار واحد قد يكون فى صالحها وقد يكون فيه الأمل للخروج من دائرة التخلف فعلى الدول القوية أن تفرق شملهم وتبث الوقيعة بينهم وتقدم للبعض منهم صكوك الغفران ووعود الرخاء والأمان وتهدد البعض الآخر بالويل والثبور وعظائم الأمور ولا بأس من الحصار والتجويع فينفض الجمع وتتفرق الكلمة وتكون الكلمة العليا للدول الكبرى.

---

١ - مشروع للسلام الدائم للفيلسوف "كانت" ترجمة الدكتور عثمان أمين.

ومن هنا ينبغي على العالم أن يعى درس التاريخ فالعالم كله الآن المتقدم منه والمتخلف يقف على شفا حفرة من نار فالمصير واحد بالنسبة لكليهما ولا خلاص لهما من ذلك المصير إلا أن يتعاونا على إقامة مجتمع جديد يقوم على أسس أهمها السلام والعدالة والمساواة وإلا كان البديل كارثة تحل بالإنسانية جميعاً، بل إن هناك فعلاً كارثة أحاقت بثلثى البشر - العالم النامى- من جوع وعرى وأمية وموت مبكر وإسكان لا يفى بالحد الأدنى من ضرورات الحياة. وتصحيح هذا الوضع البائس لهؤلاء الملايين، يستحيل أن يتحقق لأن العالم المتقدم جزء من علة هذه الكارثة، لأنه كلما اطرد به السير السريع فى التنمية والإنتاج تم الإسراف المجنون فى البذخ والتبذير، وكانت النتيجة المحتومة هى أن يزداد الفقير فقرا والمتخلف تخلفاً.

ومن سخريات القدر أن الثلث الذى احتكر الرفاهية واستأثر بالثروة لا يدرك أنه بإهماله شئون الآخرين يدعم وبشكل مأساوى قواعد الإرهاب ومواطن الفتن وحواضن الأوبئة الفتاكة وأنه إن عاجلاً أو آجلاً سيكتوى بالنار التى أشعلها أو على الأقل لم يعمل على إطفائها، وأنه وهو فى ملاذه الآمن سيفيق ذات يوم على كوارث لم تخطر له على بال.

الفصل الثالث

العنف والإرهاب أم العدالة والشرعية

سيظل الإرهاب مستمراً فى أنحاء العالم فى ظل غياب الشرعية الدولية والسلام العالمى والتعامل بمعايير مزدوجة.. وفى أجواء يسود فيها الظلم وقسوة الإحساس به، فضلاً عن الطغيان والبغى واليأس من إصلاحه، وفى إطار غربة مكانية لمن فقدوا الأمل، وحرموا العمل وطحنهم الإحساس بالمرارة واليأس فلم يجدوا إلا الغربة الزمنية ملاذاً ومهرباً وإلا الفكر المتطرف والإرهاب خلاصاً ومتنفساً، بل وسوف يزداد الإرهاب عنفاً فى ظل استمرار الكساد الاقتصادى وتداعياته السياسية والاجتماعية والنفسية.

إن التعصب والتطرف وغيرهما من السلوكيات غير السوية تؤدى إلى غربة الفرد " غربة مكانية " يترتب عليها "هجرة زمنية" وتكون النتيجة التقوقع ومقاومة التغيير والخوف من كل جديد وعدم مسايرة التطور مما يؤدى إلى ما أسميه بشلل فكرى فيصبح الفرد فريسة سهلة لدعاة الفتنة ويؤدى أيضاً إلى عدم رضاء أفراد المجتمع عن أنفسهم وسخطهم وتذمرهم وبالتالى يؤثر ذلك على إنتاجهم كماً وكيفاً، ويؤدى فى النهاية إلى اليأس والهجرة الزمنية أو الاعتبارية أى إلى العنف والإرهاب أو إلى الإدمان

والجريمة، كما يؤثر على السلام الاجتماعى وينعكس ذلك على السلام والاستقرار العالمى.

وهنا لابد أن نفرق بين الإرهاب والعنف من ناحية والمقاومة الشرعية من ناحية أخرى فالإرهاب هو وليد للتعصب الفكرى لرأى بذاته وعدم الاستماع للرأى الآخر ورفضه مقدماً ولا يكتفى عند ذلك، بل يتخذ من العنف وسيلة لفرض رأيه على الآخرين والاعتداء على حقوقهم والاستيلاء على أموالهم ظلماً وعدواناً.. أما المقاومة الشرعية فهى أمر تكفله كل الأعراف الدولية من أجل الحصول على الاستقلال والحرية والحياة الكريمة واسترداد الحقوق المغتصبة. وهنا تقع مسئولية كبيرة على عاتق المجتمع الدولى -خاصة القوى العظمى به- ومؤسساته التى تدعم السلام والأمن العالميين إذ ينبغى عليه أن يرد المعتدى عن عدوانه ويجعل من الشرعية الدولية سيفاً قاطعاً لكل أوجه الظلم والبغى والعدوان. وهناك من المواثيق الدولية والقوانين والاتفاقيات العالمية ما يكفى ليكون مرجعاً للشرعية الدولية يكشف أى طرف معتدٍ أثيم سالب لحقوق الآخرين. وينبغى على المجتمع الدولى أيضاً أن يدرك أنه حيثما وجد الظلم والقمع والاضطهاد والتفرقة العنصرية وفقاً للعرق أو الدين وحيثما وجد الطامعون فى حقوق الغير سنجد حتماً عنفاً شديداً كحل وحيد لمقاومة ذلك كله وبما يؤثر سلباً على السلم والأمن العالميين وعلى رخاء البشرية عامة.

الفصل الرابع

السلام أمل الإنسانية وهدف الأديان

إن الحقيقة التى لا شك فيها أن السلام ضرورة للتقدم البشرى، وأن المجتمع الإنسانى لا يمكن أن يتقدم بخطى حثيثة نحو الرقى فى جو مشحون بالاضطرابات، والتوتر الدولى، والتهديد باندلاع نيران الحرب فى أية لحظة من اللحظات.. ولا حاجة بنا إلى ترديد تساؤل "كانت" عما قصد إليه صاحب فندق هولندى[1]، حين نقش على ناصية فندقه رسماً يمثل قبراً.. ترى هل أراد بذلك الشعار الساخر اللاذع أن يوجه اللوم إلى الناس عامة، أم خص به رؤساء الدول المتعطشين إلى الحروب دائماً، أم أن صاحب الفندق كان يجسد رؤية مستقبلية لمصير البشرية كلها فى إطار هذا الصراع المجنون نحو الهاوية. إن المجتمع الإنسانى لا يمكن أن يحقق وجوده، ويصل إلى أهدافه بدون أن يختفى شبح الحرب من مسرح العالم، ليحل محله غصن الزيتون وترفرف فيه حمائم السلام.

إن الإسلام دين الأمن والسلام يحرم استخدام السلاح من أجل القتل والتنكيل كما يحرم الاعتداء "والله لا يحب المعتدين". فليست دعوة الشعوب إلى السلام إذن دعوة غريبة عن

١- مشروع للسلام الدائم للفيلسوف "كانت" ترجمة الدكتور عثمان أمين.

الإسلام أو جديدة على نهجه، إنما هى دعوة نادى بها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. هذه حقيقة واضحة لا ترقى إليها الريبة، والبراهين كلها دامغة بأن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام دين العنف أو البطش، أو شريعته الظلم والعدوان، إنما كان دين الحرية والمساواة والإخاء والأمان ونبذ التطرف وإعمال العقل والتدبر والتفكير.. والإسلام دين الإقناع والحوار.. وعدم التسلط "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر" .. ويقول تعالى "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".. والإسلام دين الحوار المنطقى الهادئ الذى يستمع إلى الرأى الآخر مهما كان موغلا فى الخطأ " ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن".. والإسلام دين اليسر يقول تعالى "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا.. وبشروا ولا تنفروا".. والإسلام دين التسامح يقول تعالى فى كتابه الكريم: "ولا تستوى الحسنة ولا السيئة .. ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم" ويقول تعالى: "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقِبْتُم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين".. ويقول تعالى: " فمن عفا وأصلح فأجره على الله".. "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين".. والإسلام دين السلام يقول

تعالى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله"، وقد جعل تحية المسلمين لبعضهم هى السلام عليكم ورحمة الله. وقد سمى نفسه عز وجل بالسلام فى قوله الكريم "هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام" وجعل السلام تحية أهل الجنة "تحيتهم يوم يلقونه سلام"، وسمى الجنة به "لهم دار السلام عند ربهم".. فالإسلام صورة مضيئة للتقدم البشرى والحضارة الإنسانية والسلام.

وقد سادت فكرة السلام طيلة القرون الوسطى وقام دعاة السلام بنشر وبث المحبة بين الناس. فمن يرجع إلى شعر الشاعر الإغريقى هزيود [1]، يجد أنه يصف أى عصر ليس فيه حرب ولا قتال، وليس فيه سفك دماء ولا إزهاق أرواح بأنه عصر ذهبى. وكذلك فعل الشاعر الرومانى "فرجيل" حينما ردد تقاليد بعض شعراء العصور القديمة وآراءهم وحكمهم، وذكر نبوءة "سيبل" **Sibyl** بعودة عهد من السلام الدائم يرفرف بأجنحته البيضاء على الدنيا، ويعيش الناس تحت ألويته الخفاقة. وجاء الوزير "سولى" وزير هنرى الرابع ملك فرنسا، ووضع مشروعاً كبيراً، لنشر السلام والابتعاد عن الحروب، وكذلك فعل الأب سانت بيير **St. Pierre** فى القرن الثامن عشر، أما الفيلسوف ليبنز **Leibnitz** فكان صاحب

١- الدكتور جمال الدين الرمادى: الأمن والسلام فى الإسلام.

فكرة فلسفية واحدة عن السلام، وهى وجوب إنهاء الحرب بين الأمراء.

كما وضع الفيلسوف الألمانى "كانت" فى القرن الثامن عشر مشروعاً للسلام الدائم وأشاد بحكماء العصور الغابرة حين أهابوا بالإنسانية أن تحرر نفسها مما يفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان من لغات وأديان وأوطان، وأن ينظروا إلى الناس جميعاً وكأنهم أسرة واحدة، قانونها العقل ودستورها الأخلاق وهى نفس الفكرة التى دعا إليها أيضاً الفارابى فيلسوف الإسلام فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" منذ القرن العاشر الميلادى – وأن أكبر شر يصيب الشعوب المتمدنة ناشئ عن الحرب، لأن الحرب تولد مع روح التكسب والتجارة، وهذا نوع من الأنانية والجشع. ذلك أن الإنسان اجتماعى بطبعه، وهو دائماً عضو فى مجتمع لا ينبغى أن يكون همجياً أو على بداوته الأولى، بل يجب أن ينظم تنظيماً يتيح لكل فرد فيه أن يمارس حريته ويحقق غايته الأخلاقية، وأن الجهود التى تبذل فى سبيل تحقيق تلك الغاية هى الحرية فى صميمها. وقد تشبع "كانت" بفكرة الفيلسوف الفرنسى الكبير "جان جاك روسو" الذى اقترح إنشاء تحالف بين الدول المختلفة من أجل تحقيق هذه الفكرة ونبذ فكرة الحرب وسفك الدماء. كما قام الفيلسوف الكبير "برتراند راسل" داعياً للسلام، وقاد المظاهرات وألقى الخطب، وعقد الندوات من أجل هذا الغرض، ووجه إلى العالم أجمع دعوات متكررة للسلام وإبعاد شبح الحرب الرهيب عن البشرية. ويقول برتراند راسل إن

نشوب حرب نووية على نطاق واسع سوف يكون كارثـة لا للطـرفين المتحاربين فحسب بـل للجـنس البشـرى كلـه. كمـا يقـول إن وقـف التوتر الدولى سوف لا يؤدى إلى منع الشرور فحسب بـل إلى حصـول كل الشعوب على فوائد جمة حيث أصبحت الأساليب التكنولوجيـة والعلمية الحديثة قادرة على رفع مستوى الحياة فـى كـل جـزء مـن أجزاء العالم.

ومن العسير أن نتصـور حكومـة واحـدة يكـون فـى استطاعتها أن تحكم العالم بأسره. ثم إن الحرب لا تَحسم بأى حال من الأحوال مسألة استعادة الحق أو تحقيق مكاسب غير عادلة.. وإذا كانت معاهدات السلم تضع حداً لحـرب راهنـة، فإنها لا تلغى ولا تمنع حالة الحرب الكامنة فى النفوس. لقـد أصبح ضرورياً فرض الاقتناع لكافة الأطراف بأهمية وجـود حالة من استحالة الحرب.. إن التفـاوض الآن هـو عمليـة حسـاب دقيقة لموازين القوة وقدرة كل طرف على الحركة بما يستلزمه ذلـك من أهمية إقامة بنية أساسية لحمايـة الـوطن، وأهميـة بنـاء ثقافـة للسلام فى كل أنحاء العالم مبنية على استحالة الحـرب مـع إعـادة بناء مفاهيم ومعتقدات وسلوكيات المجتمع فى إطار مشروع كامـل.. والأمل فى جيل من الشباب يدرك أن الحياة أفضل من الانتحـار وأن العمر أقصر من أن يهدر فى الصراعات والحروب وأن الأرض تتسـع للجميع أحياءاً كانوا أم أمواتاً. وهناك مقولة لأينشتين تتكلم عـن أن أى مشكلة لا يمكن حلها مـن خـلال الـوعى أو المنطـق الـذى تسـبب

فيهـا " No problem can be solved with the same consciousness which created it".

إن الذين يتصورون وهماً أنه يمكن فرض السلام بـالقوة وحدها بصرف النظر عن مقتضيات العدل والمنطق مخطئـون ويفتقدون رؤية مستقبلية ويتجاهلون عامل الزمن الذى يمكن أن يؤثر على توازنات القوى، كمـا أنهـم لا يعـون دروس التاريخ التى تؤكد باستمرار أن دوام الظلم زمناً لا يرتب حقـاً ولا يقنن وضعاً، وأن مشاعر الظلم ومرارة الإحساس بفقدان الحق تولد مع الأيام - وفى لحظة قاسية - طاقة هائلة تكسر حلقة الطغيان وتقلب موازين القوى.

إن نشر ثقافة السلام - وهو أحـد الأهـداف الرئيسـية لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافـة UNESCO - من أهم المهام التى يتعين على العالم أن يتعاون فى شـأنها.. إن إدخال مفهوم السلام فى مناهج التعليم فى كافة مراحله هو هدف يجب أن يسعى المجتمع الدولى إلى استكماله وتدعيمـه فى أسرع وقت ممكن.. إن مفاهيم الحرب والسـلام تبـدأ أولاً فـى عقول البشر ويجب ونحن نشكل عقلية الأجيـال القادمـة أن نجعـل من السلام بنيـة أساسية تسمح بـالتفكير العقلانـى الـذى يسـتطيع وحده أن يحقق الرفاهية والإعمـار فـى كـل ربـوع العـالم وأن يكفـل الحياة الكريمة لكل البشر.

الفصل الخامس

نحن وأحداث ١١ سبتمبر

لقد دخلنا بعد تلك الأحداث – ما بعد ١١ سبتمبر– في مواجهة ظروف دولية خطيرة وحساسة، أتصور أن مصر محتاجة الآن إلى أن تتسلح بقدرة واعية على رصد إرهاصات المستقبل والتحولات القادمة لكي نغتنم الفرص المتاحة في الوقت المناسب. ونحن لا زلنا في حاجة إلى روح الثورة، وذلك لأن المشاكل التي أمامنا سواء كانت داخلية أو خارجية محتاجة أكثر من أي وقت مضى إلى إرادة التغيير، وإلى تدعيم قوتنا الذاتية وإلى أن نتسلح بالقوى الجديدة الواعدة.. القوى الشاملة.. قوة العلم والمعرفة.

فبعد ١١ سبتمبر تعقدت الأمور بشكل خطير جداً وقد وُضِعْنا جميعاً كدول عربية وإسلامية في موقف الدفاع، وأصبحت إسرائيل المستفيد الأكبر من هذه الأحداث حيث استطاعت أن تربط بين أحداث ١١ سبتمبر والإرهاب وما يحدث في الأمة العربية، واستغلت مصادفات غير سعيدة في أن تقنع العالم ببعض الأفكار المغلوطة ونسبت الإرهاب للإسلام والعرب وخلطت بين الدفاع الشرعي عن النفس والاعتداء على الغير وبين حركة التحرر الوطني والإرهاب وبين الأعمال الفدائية والأعمال الإرهابية وأصبحنا نحن في الحقيقة في موقف شديد التعقيد وشديد الصعوبة.

وقد دعا هذا كله الرئيس مبارك إلى القيام بجولات فـــى أوروبا وأمريكا بهدف تبرئـــة الإســـلام وتوضـــيح صـــورته السمحة والتى تبين بجلاء أنه دين سماوى بعيد كل البعد عن الإرهاب والعنف ، ونجح فـــى تبديـــد الـــربط بـــين الإســـلام والإرهاب وفى إجهاض فكرة صدام الحضارات، وفى إيقـــاظ الوعى الإنساني فى النفوس، فبالوعى الإنسانى ترســـخ فـــى نفوس الناس المثل العليا والقيم الروحية، والمعانـى الجميلـــة، فالوعى الإنسانى هو الذى ينبه إلى الظلم كيف يُرفـــع وينبـــه الناس إلى الأخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج.

الفصل السادس

زمن الهوان

إن ما يحدث اليوم حولنا فى فلسطين والعراق وأفغانستان وفى المنطقة العربية وفى أمريكا وأوروبا وفى تطبيق ثنائية المعايير وفى إشاحة المجتمع الدولى عن مواجهة الظلم أو حتى الاعتراف بوجوده إنما يتم فى النهاية طبقاً لحسابات دقيقة لموازين القوة ومعايير المصالح ولابد أن نفيق إلى حقيقة مؤلمة هى أن لغة الخطاب العربى والإسلامي أصبحت لا تتمشى مع حقائق الواقع الدولى وعلى أحسن الأحوال فإن رد الفعل تجاه هذا الخطاب لا يخرج عن الاستخفاف فضلاً عن تقييمنا بالغفلة والتخلف كما أنها إقرار واضح منا بالعجز الكامل أمام العالم، وأمام شعوبنا وأمام التاريخ..إن الخوف من مواجهة الحقيقة والعجز عن رد الفعل المناسب وعدم القدرة على اتخاذ الخطوات العملية لتغيير الاختلال فى موازين القوة سيؤدى فى النهاية إلى تعرية كاملة للنظم العربية، وإدانة شعبية وتاريخية لقيادات هذا الجيل.

لقد تغيرت المفاهيم والاتجاهات فى عالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر فمن حوار حول الحضارات إلى هيمنة الحضارات ومن قبول الآخر إلى إرهاب الآخر ومن الشرعية الدولية إلى السطوة الدولية ومن الحرص على تغليف الهيمنة بطبقة من السكر إلى

الإصرار علـى إلقامهـا بجرعـة مـن العلقم ومـن هنـا تبـدو خطـورة الانسياق إلى ترك الأمور للـزمن فالموقف إرادة وقـرار والتـردد عجز وفرار ومن هنا لابد لنا من مواجهـة الأمـر الواقـع بمرارتـه، والعزم على تغييره، وكسر الحصار المفروض علينـا، والـتخلص مـن كسر إرادة بعضنا وفرض السيطرة علينا، والعمل على إعـادة تغـيير موازين القوة.. إننا لا نريد أن نكون أتباعاً، وننظـر بمنظـار يقدمـه لنا الآخرون ويرون الأمور من خلاله، أو كما يراد لنا أن نراهـا مـن خلال هذا المنظار، فالقطب الأوحد له رؤيته الخاصة ورددها وراءه أتباعه وأضـافوا إلى ذلـك أن العـالم قريـة واحـدة صـغيرة لا تحتمـل الاختلاف بينما القرية الواحدة تعج بالخلاف، وبنظرة سـريعة إلى الوضع العالمى القائم يتبين أمامنا:

أولاً: تمكـن القطـب الأوحـد المتمثـل فـى الولايـات المتحـدة الأمريكية ومن يسانده من دول الغرب من السيطرة على العالم.

ثانيـاً: السـيطرة الصـهيونية علـى معظـم الـدول الغربيـة والشرقية وتوجيهها لتحقيق مصالحها وأهدافها ومخططاتها.

ثالثاً: الضعف المزرى الذى تعيشه الأمة العربية والإسـلامية " زمن الهوان " من ضعف الهمة وقلة الحيلة وتشتت الـرأى وهـوان المسلمين على أنفسهم وعلى الناس، واسـتكانة الكـثيرين مـنهم فـى معارك السيطرة عليهم، فـالقوة العربيـة أصـبحت ظـاهرة صـوتية. وهذا الوضع ملموس وله أسـبابه ولا شـك لـه نتائجـه كـذلك. وهنـا

تحضرني مقولة شهيرة "هنّا على أنفسنا، فهنّا على الناس"، ولكن أين القلة من المفكرين والكتاب والأدباء والرسامين والموسيقيين والعلماء... إلخ؟ لكي يحللوا ويوضحوا ويكوِّنوا في النهاية موقفنا الخاص النابع من أفكارنا والمؤكد لإرادتنا وهويتنا الوطنية لنخرج من الحالة التي نحن عليها الآن.

قد يعيش الفرد العادى في كل أمة- ذلك الذى يسمونه رجل الشارع- دون إدراك للأحداث التي تدور حوله أو وعي بها، وذلك لأنه ينظر إليها نظرة جزئية أو شخصية أو لأنه لا صبر له على التعمق في تحليلها فهو يتناول الأمور جاهزة من وسائل الإعلام كما يتناول وجبة جاهزة من مطاعم ماكدونالدز الشهيرة وليس أمامه أو ليس له حيلة إلا الرفض وعدم تقبل التغيير أو مسايرة التطوير والاكتفاء بأن يقدم إليه إنتاج الدول المتقدمة ولسان حاله يقول عن فهم مغلوط لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً"، وتحويره إلى: لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تلبث في أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصاً وتمسي بطاناً.

إننا لا نريد لأنفسنا شللاً فكرياً، لأن مثل هذا الشلل الفكرى إذا ما تفشى يصيب الناس بجمود في قدراتهم العقلية وهزال في حياتهم الثقافية بوجه عام. وهذا يحدث لأى أمة إذا وهنت قواها

وفترت عزائمها.. إن النهر القوى فى تدفق مائه يمضى فى طريقه يشق به الصخر ويجرف الأعلاق والشوائب، أما إذا ما ركد ماؤه فى مستنقع هنا أو هناك، وجدت تلك الشوائب والأعلاق مرعاها الخصيب.

الجزء الرابع
العمـــــل والأولويات

- وقفة مع النفس
- قيم التقدم و عوامل نجاح الدول المتقدمة
- دور الدولة فى ظل التغيرات العالمية المعاصرة
- بناء القوة الذاتية

– تنمية الثروة البشرية

– التعليم وصناعة التفوق

– مهام عاجلة

* البحث العلمى و مراكز الدراسات
* التكنولوجيا
* السياحة

الفصل الأول

وقفة مع النفس

إننا نعيش فى إطار عصر جديد.. وتحت سيطرة قوى جديدة تدير اللعبة وتتحكم فى قواعدها، وفى ملاعب القوى الجديدة تشكل الاعتبارات المحلية والانتخابية وجماعات الضغط عبئاً ثقيلاً على صانعي القرار السياسى، وتؤثر الصفقات المشبوهة أحياناً فى صنع القرار كما تؤثر فى أحيان كثيرة على العلاقات الدولية - وذلك كله فى ظل ما تبقى منٍ ورقة التوت للمأسوف عليها الشرعية الدولية - وبعيداً عن آليات صنع القرار السياسى ومناوراته علينا أن ندرك أن عوامل التقدم وآلياته أصبحت تعتمد الآن على المعرفة والبحث العلمى ومعايير الجودة الشاملة، وأن المصالح المتبادلة أصبحت تسيطر على المعاملات التجارية والاقتصادية. وأمام كل ذلك فلا نملك نحن العرب استراتيجية واضحة للتعامل مع القواعد القاسية لتلك اللعبة، ولا نملك القدرة المعرفية التى تجعلنا من واضعى قواعدها، وليس لدينا سياسة موحدة لمواجهتها.. فقد اختلفنا على الاتحاد، واتحدنا على الاختلاف.. فبعضنا يعيش فى الماضى ومشكلاته، وبعضنا الآخر يعيش فى الحاضر. وهذا مرض يجب علاجه عندنا وعند غيرنا، وإن كان عندنا أفدح منه عند غيرنا، لأن الخلاف عندهم اقتصر على الأساليب والوسائل وهو فى النهاية خلاف منهجي، أما التمزق عندنا فقد تجاوز الاختلاف فى

الأسلوب والطريقة إلى ثقافة المجتمع بحيث أصبحنا نعيش وكأننا في عصرين مختلفين.. ازدواجية في الرؤى.. وهو بذلك عمى زمني.

نحن في مفترق طرق.. أمامنا طريق الجمود وسجل أبطال الفرص الضائعة.. وطريق من يتخطاهم الزمن وتفاجئهم الأحداث.. وطريق من أعدوا العدة واستعدوا للرحلة إلى المستقبل.. فإذا ما اخترنا طريق المستقبل وهو الاختيار الحتمي الذى لا بديل عنه، فيجب علينا الاستعداد للرحيل، وأن نعد للرحلة وأن نجهز المؤن، والموارد، والمستلزمات. ويجب علينا أن نؤمن أنفسنا ونحصن أبناءنا، وأن نقوم بالحصول على المعلومات ورسم الخرائط اللازمة لهذه الرحلة، ويجب أن نتدرب على مهام المستقبل. كما يجب أن نتصرف بحرص بالغ إزاء الفعل ورد الفعل وأن نلتزم بالضبط الصارم للنفس والحذر الواعى فى عدم الانسياق فى انفعالات عاطفية، وأن نحدد بدقة ما نقول وما لا نقول.

إن رحلة المستقبل تقتضى منا بوصلة ومشكالاً.. بوصلة دقيقة تتميز بالسرعة البالغة فى الضبط والتحديد لتواكب التغيرات السريعة والمفاجئة والمتلاحقة.. ومشكالاً Kaleidoscope يرى الأحداث بزوايا مختلفة وتفسيرات متعددة ورؤى تتصف بالمرونة وتشجع على الإبداع وتسمح بالاختلاف، ذلك أن عالم الغد لا يخضع للمقاييس والرؤى الخطية أو الطولية أو القوالب الجامدة، وإنما يتميز بالتشابك

والتعقيد الذى يصل إلى حد الفوضى والتداخل الذى يؤدى إلى الارتباك.

ولابد أن نشير هنا إلى أننا ونحن نعيد ضبط بوصلة المستقبل ونمهد لزمن قادم لا يمكن أن ننسى اعتبارات الحاضر التى تحتم علينا أن نحافظ على استمرار العلاقات الدولية الطيبة، وأن نأخذ فى حسباننا ردود الفعل المحتملة ونحاول اتقاءها، وأن نتحلى بأقصى درجات ضبط النفس، ذلك أننا فى زمن غاب فيه المنطق وأخذ العقل إجازة واعتزلت الشرعية الدولية بلا مقدمات ولا إخطار.. إن الحاضر ليس فقط حفاظا على ما هو قائم وإنما هو وقاية مما قد يكون وتأمين لفرص قادمة لم يحن أوانها بعد وطريق الوصول إليها محفوف بالمخاطر. ومن هنا ونحن نتجه إلى المستقبل يجب أن نؤمن الحاضر، وأن نتحسس جيدا الطريق وأن نتجنب المفاجآت قدر الإمكان.

نحن لا نستطيع أن نفصل العمل الدبلوماسى والعلاقات الدولية والاستعداد للرحيل إلى المستقبل عن مشاكل الناس اليومية وعن متطلبات الحاضر الضرورية وعن العمل السياسى الذى يستطيع فى إطار فن تحقيق الممكن أن يؤمن الجبهة الداخلية وأن يساعد الناس على الصبر، وأن يفتح باب الأمل لقطاعات عريضة باتت تحس بكآبة وضيق، ونزيل الإحساس الذى بدأ يسرى بين بعض الناس بأنه لا أمل ولا مستقبل، ونتصدى للقوى التى غابت عنها

الرؤية الصادقة وأعمت بصيرتها الأهواء والمصالح وضيق الأفق، وأصبحت تترصد لتغذية الفتن والتحريض على التذمر وترسيخ اللامبالاة واليأس بين الناس، وتلك مشاعر لا نستطيع أن نتحمل نتائجها خصوصا فى الفترة الراهنة، ولا نملك أن نتجاهلها لأن الجبهة الداخلية فى النهاية هى عدتنا وهى قوتنا الذاتية، وهى رصيدنا الاستراتيجى الذى يتحتم أن نستثمره أفضل استثمار، وأن ننمى فيه كل عوامل الأمل، وضرورات العمل.

لقد حان الوقت لكى نراجع أنفسنا كعرب ومسلمين وأن نصارح بعضنا البعض بأننا قد ارتكبنا أخطاءً فادحة ندفع ثمنها الآن.. وليس هذا اتهاماً لأحد ولا إدانة لطرف بل هو نوع من ممارسة النقد الذاتى، فكلنا مسئول.. البعض منا أخطأ فى حق نفسه وأمته عامداً متعمداً وأخذته العزة بالإثم.. والبعض الآخر أخطأ الفهم وتجاوزته الأحداث وغافلته تغيرات قواعد اللعبة الدولية وعجز عن فهم المفردات الجديدة فى لغة النظام العالمى الجديد.. وآخرون فهموا وأشاحوا بوجوههم عن مواجهة الحقيقة أو تباطأت ردود أفعالهم وتخطتهم الأحداث.. والبعض لم يبذل الجهد الكافى فى تنوير مجتمعه، وشرح قضيته. والقلة القليلة فهمت وأدركت وحاولت ولم تجد أذناً صاغية أو عقولاً واعية.

ونحن جميعاً وأنا منهم قد حانت لنا ساعة مواجهة النفس بالحقيقة ومصارحتها بالمأساة .. كيف نرى عالم اليوم؟ ما موقفنا منه؟ هل لنا رؤية خاصة بنا، أم أننا نترك أنفسنا لوسائل الإعلام العالمية ونتناول الأمور كما تقدمها لنا؟ هل نريد أن نكون منافسين ومشاركين ولنا إرادة، أم مهمشين ومتفرجين ولا حول لنا ولا قوة؟ هل نريد أن نكون أو لا نكون؟ .. ما العمل؟

الفصل الثانى

قيم التقدم وعوامل نجاح الدول المتقدمة

لقد استطاع العالم المتقدم أن يتطور سريعاً من خلال تطبيق مجموعة من القيم والأساليب التى أصبحت فى وقتنا الحاضر ركائز أساسية للتطور والتقدم وهى الالتزام والإيمان بهدف، والإتقان فى العمل، وروح الفريق، والمنافسة الشريفة، واحترام العمل وقيمة العمل اليدوى، وتقديس العلم واحترام التعليم واتباع الأسلوب العلمى وسرعة تطبيق الاكتشافات العلمية فى الإنتاج، وتنمية الرصيد القومى المعرفى، والاهتمام بإنتاج البرمجيات، وزيادة نسبة المدخرات، والمرونة الصناعية، وتدعيم الديمقراطية، وحرية الرأى، وحق الاختلاف واحترام الرأى الآخر، فضلاً عن العدل والمساواة، واحترام الوقت وفن إدارته كمورد من أهم الموارد، والتسامح والتعاطف والنظافة.

كما قاموا بتوسيع قاعدة المشاركة المجتمعية كأحد أبرز قيم التقدم فى العالم لأنه مهما بذلت الدولة من جهد ومهما خصصت من موارد فإنها لن تستطيع أن تفى وحدها بالحاجات المتزايدة للتطوير فى عصر تتسارع فيه الخطى فى الاكتشافات العلمية، وتتسع دائرة التعليم واهتماماته

ومتطلباته، وتتعقد فيــه التكنولوجيــا. فالعـالم يتجـه اليـوم إلى الاقتصاد الحر، وإلى ما يسمى بالقطـاع الثالـث (المجتمـع المـدنى).. وفى ظل تقلص دور الحكومات وانتقال جزء كـبير مـن مسئولياتها إلى القطاع الخـاص، وإلى المجتمـع المـدني، يتعـاظم دور الجمعيـات غير الحكومية والتى تقوم بالخدمات الأساسية المتعلقة بدعم التعليم والصحة والنظافة ورعاية المسنين، وتستطيع أن تقـوم بـأدوار رائـدة ومبتكرة وبطريقة أفضل كثيراً من الطريقة التى تقوم بها الحكومـة. ولهذا القطاع فى مصر دور تـاريخي حيـث أدى خـدمات جليلـة فى مختلـف المجـالات الصحية والتعليميـة والاجتماعيـة وكـان مثـالاً لعطاء المصريين ولرغبتهم في خدمـة المـواطنين وفي خدمـة الإنسـانية عموماً.. لكننا ما زلنا فى حاجة إلى مزيـد مـن مشـاركة هـذا القطـاع الهـام، فالمنافسة الدولية تحتاج إلــى قــوة عمــل متطــورة وخبرات بمعايير ومقاييس دولية، وذلك لأن تكلفــة اســتيراد وتوطين هذه الخبرات ذات المواصفات الدولية أكبر بكثير من مصاريف إعدادها محلياً، بالإضافة إلى أنهــا تفتقــد عنصــر الولاء والانتماء. وبالتالى فإن رجال الأعمال إذا ساهموا فى تمويل وإعداد هذه القوة البشرية فهم بذلك يخططون للمستقبل، فالجـدوى الاقتصادية لتلك المساهمة مؤكـدة ولا تـؤثر علـى قـدرتهم فـى سوق العمل. ولا شك أن الجهد التطوعى غير الحكومى القـائم علـى حـب الصالح العام والاهتمام به والرغبة فـى خدمـة الغـير والعمـل الـذى

يسير فى إطار روح الفريق سيضيف قوة ضخ جبارة سوف تساند الجهد الكبير الذى تبذله الدولة. لذلك نحن فى حاجة إلى خطة لمخاطبة الرأى العام.. إذ ينبغى أن تتبلور المسئولية الاجتماعية لرأس المال بطريقة أفضل فى المرحلة القادمة، ونحن فى حاجة أيضاً إلى حملة قومية لتغيير ثقافة المجتمع وتبنى الأفكار الجديدة اللازمة للتطوير ومواكبة التغيير.

ولكى ينجح عملنا يجب أن نجيد فن إدارة الموارد وأهمها تنظيم الوقت فهو أثمن ما يملكه الإنسان، وأن نتعلم احترام الوقت والالتزام بالمواعيد، فالوقت قيمة حضارية، كما أنه موروث حضارى فى ثقافتنا العربية والإسلامية فالحكمة المأثورة تقول: "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك"، ويقول شاعرنا العظيم أحمد شوقى:

دقات قلب المرء قائلة له .... إن الحياة دقائق وثوان .

والوقت قيمة اقتصادية وقيمة تقدم بل وقيمة تربوية تتمثل فى أن كل عمل له وقت بداية ونهاية. وهناك قانون يسمى "قانون ٢٠٪ إلى ٨٠٪" حيث ثبت أن استعمال الوقت دون تركيز يؤدى إلى إنجاز ٢٠٪ فقط من الأعمال و٨٠ ٪ من الأعمال لا يتم إنجازها.

وقد آن الأوان أن نعيد النظر فى ثقافة الاجتماعات السائدة فى كثير من مجتمعاتنا، فقد أصبحت اللجان مقبرة للأفكار

والإنجازات، وأصبحت الاجتماعات مضيعة وإهداراً للوقت، ولابد أن نتذكر دائماً أن الاجتماعات تشبه الهواء الساخن الناتج عنها وأنها تتمدد كالهواء إلى المدى الذى نسمح به. وإذا لم نحدد مدة الاجتماعات فإنها تتحول إلى غول يبتلع الوقت والجهد ويقضى على الفكر والإبداع.

كما آن الأوان أن نحيى ثقافة الإتقان فى العمل، وأن نتخلص من رواسب سلوكيات اكتسبناها من أيام التخلف والاستعمار وهى التظاهر بالعمل. وكان هذا منطقياً يوماً من الأيام كرد فعل لعدم الرغبة فى التعاون مع الغاصب أو المحتل وكمظهر من مظاهر العصيان المدنى تجاه ظالم لا نستطيع مواجهته أو مخالفته. أما الآن فلا بديل عن قيم الإتقان سبيلاً إلى التقدم والتميز، وميزة تنافسية فى السوق الدولية. ولعلنا نقتدى بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".

ومن ناحية أخرى فإنه لابد أن ننمى فى المجتمع بأسره وفى كافة مجالات العمل الوطنى قيمة التدريب المستمر، وفكرة التدريب أثناء العمل، وثقافة التعلم الدائم. إن المجتمع المتعلم هو المجتمع الناجح والقادر على المنافسة فى عالم اليوم. ومن مأثور القول : (لايزال الإنسان عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل).

إذن أمامنا عمل كبير حتى نصل إلى ما نصبو إليه، وأهم ما يجب أن نتحلى به هو الإرادة، فهناك حكمة مأثورة تقول "إذا كنت تتصور أنك لا تستطيع أن تنجح فمن المؤكد أنك لن تنجح، وإذا كنت تريد أن تفعل شيئا ولكنك تتشكك فى إمكان حدوثه فمن المقطوع به أنك لن تستطيع أن تفعله"، ونتائج معارك الحياة لا تذهب عادة إلى الأقوى أو إلى الأسرع، ولكنها تُحسم لصالح من درس وخطط .. حَدَّد وصوَّب .. استثمر ذكاءه العملى والعاطفى واجتهد .. جد فوجد .. وثق بنفسه وآمن بربه فانتصر.." فاستجاب لهم ربهم أنى لا أُضِيُع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى" صدق الله العظيم.

الفصل الثالث

دور الدولة فى ظل التغيرات العالمية المعاصرة

علينا أن نواجه أنفسنا بحقيقة مؤلمة هى أن السنوات القليلة القادمة سنوات قاسية مليئة بالمفاجآت غير السارة ومشاكل متشابكة بل وتحديات ومخاطر حقيقية.. وعلينا أن نبدأ فى مواجهة مشاكل داخلية ملحة.. الأزمة الاقتصادية حتى وإن كانت جزءاً من ظاهرة عالمية.. أزمة الشباب والتى تتجسد فى تآكل الثقة فى كثير من المسلمات والقيادات، ومخاطر ضعف الهوية فى مواجهة العولمة، والعزوف عن العمل العام، وتزايد الإحساس بالمادية، وضعف الأمل فى المستقبل، واهتزاز القدوة، والفراغ السياسى.. علينا أن نستمر وبكل قوة فى ملاحقة الفساد الذى يؤدى إلى فقدان الثقة فى الدولة، وضياع الأمل فى الحق والعدل، والإحساس بالغربة المكانية والانطواء، وضعف الانتماء وما قد ينتج عن ذلك من عصيان مدنى فى نهاية الأمر.

وهنا يتجسد دور الدولة.. فدورها لا ينمحى.. قد يتغير، ولكنه لا يتقلص، ويستلزم ذلك ضرورة مشاركة الدولة مع القطاع الخاص فى دعم المجتمع المدنى (القطاع الثالث) والعمل التطوعى والجمعيات غير الحكومية التى تؤدى الخدمات الإنسانية التى قد تعجز الحكومة عن تأديتها على الوجه الأكمل.. فقد قال "جيرمى

رفكن" Jeremy Rifkin أنه ما لم تنفق الحكومة والقطاع الخاص على تمويل هذا القطاع الثالث ليؤدى تلك الخدمات فإنهم سينفقون أكثر على بناء السجون لاستيعاب المجرمين الذين سينشئون نتيجة غياب العدالة الاجتماعية وغياب الخدمات الأساسية لقطاعات محرومة وزيادة ظاهرة التذمر، والغربة المكانية، والتطرف والإرهاب.

وقد كان الرئيس مبارك سباقاً إلى التنبيه إلى دور الدولة الحاسم والمتغير فى إطار الانتقال إلى الاقتصاد الحر والعلاقات الدولية فى زمن العولمة. ونبه الرئيس فى خطابه لمجلسى الشعب والشورى عام ١٩٩٨ إلى أهمية دور الدولة فى ضبط مسار المجتمع والحفاظ على مصالح الدولة العليا والحفاظ على التوازن المطلوب بين مصالح كل فئات المجتمع لتحقيق العدالة الاجتماعية، وكذلك دور الدولة فى حماية المستهلك ومواجهة ارتفاع الأسعار والحد من البطالة. كما أكد على ذلك فى خطاباته أمام مجلسى الشعب والشورى فى أعوام ٢٠٠٠، ٢٠٠١، ٢٠٠٢.

لقد كان دور الدولة فى السابق يتمثل فى التخطيط وفى الإدارة وفى القطاع العام والنشاط الاقتصادى وفى أداء معظم الخدمات فضلاً عن الحفاظ على النسيج الوطنى والهوية والوحدة الوطنية وتكافؤ الفرص وعدالة التوزيع.. أما الآن ونحن فى مرحلة الاقتصاد الحر فإن دور الدولة يختلف عما كان عليه فى مرحلة الاقتصاد

الموجه. فهو يميل إلى أن يكون دور قائد الدفـة، ودور مـن يخطط ويراقب ويتابع ولكنه لا ينشغل بالتنفيـذ والمشـاركة الفعلية فيما يمكن أن يقوم به القطاع الخـاص أو المجتمـع المدنى.. ويبقى دور الدولة فى رعاية ما يسمى بالصالح العام Welfare State أو الحفاظ على الرضاء الاجتماعى العـام والتوازن بين المصالح المختلفـة ورعايـة غيـر القـادرين والمهمشين الذين هم أهم عوامل الاستقرار وأقـوى محـاور التأمين للاستثمار وتدعيم قـدرة الاقتصـاد الحـر والقطـاع الخاص على النمو والبقـاء، وفـى الوقـت نفسـه تشـجيع المبادرات الخاصة وتدعيم قوى السوق، مع حماية محـدودى الدخل. ولابد من وجود مؤسسات وبرامج وآليات لكفالة الحد الأدنى من الخدمات الإنسانية لغير القادرين، وإعادة تأهيل من يقع فريسة للتحولات الاجتماعية الخطيرة بحيث نمكنهم مـن العودة إلى عجلة الإنتاج وإلى الحياة الاجتماعية السليمة.

إن واجب الدولة يحتم عليها أن تمنـع الاحتكـار، وأن تحـدث توازنا بين المصالح المختلفة، وأن تمنع سيطرة رأس المال على الحكم وشراء الأصوات الانتخابية. كما يجـب أن يظهـر دورهـا جليـا فـى محاولة ضبط تأثير اقتصاد السوق على المجتمع ومنع ما قـد يحـدث من تفاوت كبير فى مستوى الثـروات والـدخول بـين قمـة المجتمـع وقاعه، ومـا يترتـب علـى ذلـك مـن احتمـالات الصـدام الاجتمـاعى

والتناحر بين الشرائح المختلفة .. فيجب على الدولة أن تحدث التوازن بين مقتضيات إطلاق فرص الاقتصاد الحر وتشجيع القطاع الخاص وإطلاق المبادءة الفردية والقضاء على ما قد ينشأ من فروق ضخمة في قدرات الأفراد وإمكاناتهم وحقوقهم الواقعية وإلى افتئات واقعي على تكافؤ الفرص، وبين مقتضيات الديمقراطية التي هي مبنية على حقوق متساوية للمواطنين تتمثل في صوت انتخابي لكل فرد، ومبدأ المساواة في الحقوق والواجبات. فمن الثابت تاريخياً أن التفاوت الصارخ بين شرائح المجتمع وفئاته في أي نظام والغياب المستفز للتقارب بين طبقات المجتمع كان العنصر الرئيسي لسقوط كل الامبراطوريات والقوى الكبرى في كافة مراحل التاريخ وأن الأذكياء في المجتمع الرأسمالي في القرنين الأخيرين استطاعوا ببصيرتهم المستقبلية واهتمامهم بالآخرين أن يُجنبوا الرأسمالية مصيراً كان متوقعاً من الكثيرين، وأنهم تجاوزوا بذلك أزمات لم يستطع منتقدوهم من أصحاب الفكر الماركسي أن يتجنبوه لأنظمتهم.

ويبقى دور الدولة وتزداد أهميته في الحفاظ على النسيج الوطني ودعم الوحدة الوطنية وترسيخ الهوية والحفاظ على القيم الأصيلة وصيانة تكافؤ الفرص والتصدي للفساد والانحراف، كما يزداد دورها أيضاً في مواجهة التحديات على الصعيدين العربي والعالمي، فعلى الصعيد العربي أمامنا معادلة صعبة ولكنها ليست مستحيلة وهي ضرورة ضبط رد الفعل الوطني والقومي تجاه

ما يواجهه الوطن العربى من أحداث فى إطار حسابات دقيقة لردود الأفعال الدولية والأمريكية بصفة خاصة، وتأثيراتها المحتملة على الأمن القومى المصرى، وأثرها على إمكانات النمو الاقتصادى والاستثمار فى بلادنا.. ووجوب المحافظة على التوازن الحرج بين الدور العربى والإقليمى لمصر وهو ضرورة قومية وتاريخية وأخلاقية وبين أخطار المواجهة الإسرائيلية والأمريكية.. وعلى الصعيد العالمى علينا أن نستفيد استفادة مبكرة من التغيرات المستقبلية فى موازين القوى الدولية فى إطار علاقاتنا الدولية فى هذه المرحلة، وفى إطار المعايير المفروضة دولياً من القطب الأعظم. ومن ثم فلابد من تغليب ضرورات الأمن القومى المصرى بالدرجة الأولى، فلا شك أننا نواجه موقفاً شديد الخطورة والتعقيد وهو سيطرة هذا القطب الأعظم على العالم، وذلك وضع يجب أن نتعامل معه بواقعية وفى تقديرى سيستمر لسنوات.. ولكن المصلحة العامة وحسن إدراك الأمور تقتضى منا أن نستعد لما بعد هذه المرحلة. فما لا يمكن علاجه يجب أن نتحمله، ولكن ما يمكن الوقاية منه يجب أن نتداركه.

وما زال أمامنا جهد شاق نبذله فى مواصلة الاتصال بالقطب الأعظم والدول المتقدمة فى إطار حوار عقلانى يركز فقط على المصالح المشتركة العاجلة والآجلة ولا يمل من التركيز على التطورات المستقبلية التى تتعلق بمصالحهم..

ما زال أمامنا عمل شاق فى التعرف على العقلاء والمفكرين الذين لا يخلو منهم أى مجتمع مهما أصابه من غرور أو ركبه من العناد، وإقامة جسور من التفاهم والحوار معهم.. ما زالت أمامنا مهمة معقدة هى إيجاد محاور عمل مشترك تؤدى بنا ولو بعد حين إلى رؤية متماثلة تصل بنا جميعاً إلى السلام.. ما زال أمامنا واجب مقدس فى إقناع من تسلطت عليهم الغطرسة وجمحت بهم القوة بأننا لا نكره أحداً وأن عقيدتنا تدين اللدادة فى الخصومة وأن الحياة تتسع للجميع وأن العنف والحقد يأكل فى النهاية صاحبه.

وفى تقديرى فهناك قوى صاعدة فى العالم بدأت تستعيد قوة دفعها وهناك إرهاصات واضحة على أنها ستتبوأ مكانتها فى عالم متعدد الكيانات وبه قدر أكبر من التوازن فى فترة لا تتعدى عشر سنين أو خمس عشرة سنة. وأولى هذه القوى هى الصين.. شعب تعداده ١,٣ مليار نسمة ولا زال - فى عالم يموج بالتغيرات والاضطرابات - يحتفظ بتماسكه إلى حد بعيد، ويجدد قياداته بهدوء واضطراد ويتقدم من يوم إلى آخر بسرعة غير مألوفة. وفى هذا المقام تحضرنى واقعة بالغة الدلالة فلقد أتيح لى أن أحضر بناء على دعوة من الرئيس الصينى جيانج تسه مين **Jiang Zemin** أولمبياد الجامعات العالمى الذى أقيم فى بكين فى أغسطس٢٠٠١ وتجرى العادة فى مثل هذه المناسبات على أن يتبادل عداؤون حمل

الشعلة حتى يصلوا إلى الاستاد ثم يصعد الأخير فيهم إلى منصة عالية بها مواد قابلة للاشتعال ليشعل بالشعلة الأوليمبية الشعلة الكبيرة التي تُرى فى كل أنحاء بكين وعندما وصل العداء الأخير إلى قاعدة المنصة العالية لم يصعد إلى المنصة وإنما ارتفعت من أرض الاستاد سفينة فضاء صغيرة وصلت إلى ارتفاع عدة كيلومترات ثم أطلقت صاروخاً واحداً موجهاً بالليزر أشعل الشعلة الأولمبية الكبيرة. ولا أدرى لماذا خطر لى فى هذا الوقت أن هذا الاستعراض هو رد سلمي وطريف على مبادرة "حرب النجوم".. وفى الأيام الأخيرة تناقلت وكالات الأنباء أن الصين قد أطلقت قمراً صناعياً إلى الفضاء. وهكذا تتوالى الشواهد على حجم الدور الذى يمكن أن تلعبه الصين فى السنوات القادمة. ففى السنوات العشرين الأخيرة كان معدل نمو الصين الاقتصادى السنوى يتجاوز الـ ١٠% فى كثير من الأحيان ، والبيانات المتاحة طبقاً لـ ALMANAC الأمريكى تقدر الدخل القومى الإجمالى للصين بنحو ٤,٥ تريليون دولار وهو رقم يقترب بسرعة من الدخل القومى الأمريكى كما أن الميزان التجارى بين الصين وأمريكا عام ٢٠٠٢ يشير إلى وجود فائض قدره ٩٣,٦ مليار دولار لصالح الصين.. بالإضافة إلى أن هناك جزءاً كبيراً من النشاط الاقتصادى غير المحصور أو البعيد عن الرصد الرسمى، وهناك أيضاً الجالية الصينية الضخمة التى تقدر

بأكثر من ٥٠ مليون صينى يعيشون فى أماكن مختلفة من العالم ولا يزال ولاؤهم للصين قوياً ومتيناً ويمثلون قوة اقتصادية ضخمة حجم ثروتها يتعدى ٣ تريليون دولار.. كما أن هناك إرهاصات بأن التنين الأصفر ستتسع رقعة نفوذه وربما كيانه نفسه إلى مناطق مجاورة تتشابه ظروفها وتتقارب مصالحها وتربطها بالصين الأم وحدة اللغة وتوافق العادات واختلاط الأنساب وتشابه الحياة الاجتماعية والظروف الجغرافية. كما تشد بعضها إلى بعض أوتاد من تاريخ مشترك وتجارب واحدة. ويؤكد ذلك ظاهرة تفوق الصين فى الرياضيات والعلوم فى كثير من المسابقات. وكذلك جذور الفن التى تتجلى باستمرار عبر عصور الحضارة الصينية، ثم المد العلمى المعاصر والذى انعكس فى بعثات بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة وأوروبا كان معظمهم فى القرن الماضى لا يعودون إلى وطنهم الأم، ولكن فى السنوات الأخيرة من القرن زادت نسبة عودة هؤلاء العلماء والباحثين حاملين رصيداً ضخماً من المعرفة والخبرة، مشكلين حشداً كبيراً من العلماء فى المجالات الحساسة للتقدم البشرى. كما أن التوافق الغريب الذى استطاعت دولة "شيوعية" أن تحققه مع تجارب ناجحة بكل المقاييس للاقتصاد الحر هو أمر يشكل قوة دفع كبيرة لهذا النجم الصاعد الذى لا تنقصه الحنكة السياسية ولا القدرة على المناورة والمرونة اللازمة فى هذه الفترة الحساسة من التاريخ.

والقوة الصاعدة الثانية هى الاتحاد الأوروبى.. بالعضلات الألمانية الضخمة وهى قوة الاقتصاد فى عصرنا هذا.. وبالبراعة المالية للإنجليز.. وبالموهبة الفنية والثقافية التى تمثلها فرنسا وإيطاليا، بالإضافة إلى الرصيد الضخم من المعرفة خاصة فى العلوم الأساسية، والخبرات الفضائية والنووية فى دول الاتحاد السوفيتى السابق، والتى هى فى طريقها فيما أعتقد إلى أن تكون رصيدا استراتيجيا للاتحاد الأوروبى.. إن هذا التجمع البشرى الضخم الذى يقارب المليار من البشر وبهذا الرصيد القومى للمعرفة والجذور العميقة للثقافة والفن يشكل كيانا يرشحه كمنافس خطير فى الحلبة الدولية.

ولعل بعض المواقف التى اتخذتها أوروبا تجاه بعض الأحداث الدولية وخاصة فى الشرق الأوسط تنهض دليلاً على عراقة هذه القوة الصاعدة وعمقها الثقافى، وتكشف فى الوقت نفسه عن إرهاصات وخلافات وتوازنات متغيرة فى إطار تَشَكُل نظام عالمى جديد متعدد الأقطاب.

ونحن نملك رصيدا تاريخيا وصلات قديمة ومصالح مشتركة وإمكانات كبيرة تعود بالنفع على كل الأطراف مع هذه النجوم الصاعدة.. والمهم أن نبدأ فى وقت قريب بأسرع ما يمكن فى تدعيم جسور التفاهم والصداقة والمصلحة المشتركة مع هذه الأطراف أو مع

بعض المحاور المهمة فيها مثل الصين، ودول الاتحاد السوفيتى الأسبق الإسلامية، وفرنسا وإيطاليا وألمانيا حتى نصبح حلفاء استراتيجيين يمكن أن نفيد من هذه العلاقات عندما تكون هذه القوى عاملا حاسماً فى التوازن الدولى.

ولكى نغير موقعنا على الخريطة العالمية يجب أن نعكف على بناء قوتنا الذاتية فى هدوء وبغير ضجيج، وأن نركز على مواطن القوة الكامنة فى البشر والمكان والزمان، وأن نتسلح بقوة رصد دقيقة للفرص والإرهاصات والتحولات القادمة، وأن نتفوق فى المجالات التى لها ميزة تنافسية.

الفصل الرابع

بناء القوة الذاتية

قال تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون "[1]

ويجب ونحن نتفهم الآية الكريمة أن نتنبه إلى أمرين..

الأول: أن القوة المعاصرة هى قوة العلم والمعرفة وأنها هى رباط الخيل فى زمننا هذا وهى مربط الفرس وبيت القصيد.

والثاني: هو أن الله سبحانه وتعالى يقول "ترهبون به عدو الله " فالهدف من القوة ليس استعمالها وليس استنفاذها، وإنما هو هدف أسمى وأكثر إنسانية..هو مجرد إرهاب العدو ومنعه من التفكير فى الحرب وإقناعه باستحالة تحقيق المكاسب غير العادلة عن طريق استعمال القوة. فالقوة التى تؤتى ثمارها وتحدث مفعولها وهى سليمة مصونة أفضل بكثير من القوة التى تُستنفد لتصل لأهدافها وتحقق مرادها. فبجانب هذا المغزى الإنساني من الحفاظ على الأرواح وتجنيب كل الأطراف الهلاك والدمار فإنه يحافظ أيضاً على ثروات البشر وقدراتهم من التبدد والضياع، ويحتفظ للأجيال القادمة بفائض ضخم من ثروة الوطن ورصيده الاستراتيجي.

---

[1] سورة الأنفال آية (٦٠) .

تنمية الثروة البشرية

يجب النظر إلى الإنسان على أنه عنصر أساسي في التنمية الدائمة.. فهو أداتها.. وهو هدفها في نفس الوقت.. وتنميته ليست مجرد تنمية تكنولوجية فحسب.. بل هي أيضاً تنمية في المجالات الاجتماعية، والثقافية، والفنية، والأخلاقية.. وغيرها من المجالات الإنسانية المختلفة. وتعتمد ثروة الأمم على قيمة ما تملكه من الثروة البشرية، وليس كما كانت في الماضي على قدر ما تملكه من ثروات أو موارد طبيعية، فنجد مثلاً دولة كاليابان - أو كوريا الجنوبية أو ماليزيا وغيرهم من الدول - لا تملك من الموارد الطبيعية الكثير حيث تستورد البترول والفحم والغاز والحديد والمواد الأخرى، إلا أنها استطاعت أن تحقق ثورة في نوعية البشر.. وتغيير نوعية البشر لا يأتي بالتغني بوجوب التغيير والثورة وإنما عن طريق التعليم في مرحلة التكوين.. لذلك لابد أن نصل إلى كيفية تغيير تكوين البشر بحيث يكونون مختلفين عنا وعمن سبقونا.. يجب أن نعرف كيفية مواجهة التهديدات والتحديات وكيفية اللحاق بالأمم الأخرى لأننا ندخل في سباق مستمر مع كافة الدول على الصعيد الاقتصادي، والثقافي، والفني، والفكري، والسياسي، والدبلوماسي. خاصة وأن الثروة البشرية هي ميزتنا النسبية منذ زمن الفراعنة الذين أنشأوا أول وأعظم حضارة في التاريخ.. إن أبناء هذا الوطن هم ثروته الحقيقية وهم خير

أجناد الأرض. ولقد أَثْرَت العمالة المصرية المتعلمة المهاجرة، المنطقة من حولنا، وكانت رصيدنا فى سنوات القحط ومصدراً أساسياً للعملة الصعبة فى مراحل الكساد والانكماش.

ما زلنا فى ظل مستوى وخبرات وقدرات ثروتنا البشرية مضطرين إلى اعتبار المؤشر العددى لهذه الثروة والتزايد السنوى لهذه القوة مشكلة يستلزم العمل على الحد منها.. وذلك أمر طبيعى فى ظل الظروف الحالية التى جعلت من الزيادة السكانية خطراً يبتلع كل عوائد التنمية، فى حين أن الأمل هو تدعيم هذه الثروة بخبرات وقدرات عالية تمكنها من خلق فرص عمل جديدة والمشاركة فى الإبداع والابتكار وانتشار التعمير وغزو الصحراء.. كما يجب أن نجعلها فى ميزان قوتنا التنافسية فمساحة أرضنا والثروات الطبيعية الموجودة بها والمزايا النسبية التى حبانا الله بها كان يجب أن تؤدى إلى اعتبارنا الثروة البشرية وتزايدها ميزة تنافسية لهذا الوطن، فقد صنعت الثروة البشرية فى عصر الفراعنة أكبر وأعرق حضارة فى العالم عرفها التاريخ فى ذلك الوقت، فقد كان عدد سكان مصر فى عصر الفراعنة ٣٠ مليون نسمة أى ما يعادل تقريباً ١١٪ من سكان العالم.. ولكن فى ظل الظروف الحالية ولسنوات غير قليلة قادمة فلا مفر أمامنا من أن نتبع سياسة سكانية صارمة نحد فيها من الانفجار السكانى إلى أن نستطيع أن نجعل من كل فرد فى هذه الأمة

ذكراً أو أنثى، طفلاً أو بالغاً، سليماً أو معوقاً- قوة مضافة إلى الرصيد القومى المعرفى وجهداً محققاً فى بناء مصر الحديثة، وهو ما يعيدنا إلى قضية تطوير التعليم والتدريب.

فالعملية التعليمية المطورة أصبحت ضرورة من أهم ضرورات تنمية الثروة البشرية فى وقتنا الحاضر نظراً لما تتضمنه من أبعاد تتصل بالقيم والاتجاهات وأنماط السلوك، وبأساليب الإنتاج والاستهلاك، وإعداد القوى البشرية اللازمة لتحقيق النمو الاقتصادى الأمر الذى يتطلب تغييراً شاملاً فى ثقافة المجتمع وسلوكياته تجاه التعليم ومتطلباته وأهدافه ووسائل ضبط جودته وتقويمه حيث أصبح التعليم وثيق الصلة "ببنية المهن" فى المجتمع بعد أن كان يوماً ما يُعِد فقط الصفوة المثقفة المترفعة عن العمل.

وبادئ ذى بدء فإن تطوير التعليم فى مصر يواجه تحديين كبيرين أولهما الفجوة التمويلية الضخمة التى تباعد بين الطموحات المشروعة والأهداف الإستراتيجية التى يتعين الوصول إليها وبين حجم التمويل المتوافر حالياً. انظر جدول الإنفاق العام على التعليم.(*) وفى هذا الشأن فلا بديل عن أساليب غير تقليدية ورؤية جديدة تتعلق بحجم وأسلوب التمويل. إن زيادة المشاركة المجتمعية فى تمويل التعليم أو

(*) انظر جدول رقم (١٦) بملحق الجداول ص (٢٣٣).

المسئولية الاجتماعية لرأس المال وترشيد المجانية فيما بعد التعليم الأساسى وإنشاء المدارس التعاونية هى خيارات يتعين بحثها بجدية إلى جانب الاستمرار فى زيادة مخصصات الدولة للتعليم. إن مؤتمر قمة التعليم الذى شاركت مصر فيه عام ١٩٩٣م فى نيودلهى بتنظيم من اليونسكو كان أحد قراراته الهامة رفع نسبة مخصصات التعليم من الناتج القومى إلى ٦%، وهو أمر من شأنه تدعيم إمكانات التعليم وتطويره بشكل فعال فى مصر.

وإلى جانب ذلك فإنه من الضرورى أيضاً البحث بجدية فى ترشيد الإنفاق والاستخدام الأمثل للموارد المتاحة واستخدام أساليب وتكنولوجيات جديدة تحقق وفراً فى الإنفاق وتقلل من الفاقد أياً كان قدره. وثانى هذه التحديات هو الحاجة الماسة إلى تغيير ثقافة المجتمع تجاه التعليم.

إن عملية التعليم عملية متكاملة لا تقتصر فقط على النمو الاقتصادى وحده وإنما تتعداه إلى التنمية الثقافية والاجتماعية أى أنها تنمية شاملة لا يستطيع المجتمع تحقيقها إلا إذا اتخذ من التعليم أداة ووسيلة فعالة لإقامة التنمية الشاملة على أسس وقيم سليمة. فمن المعروف أن عملية التنمية تتطلب تغييرات عديدة فى السلوك الاجتماعى القائم وفى ثقافة المجتمع وفى أساليب الإنتاج والاستهلاك المتبعة. وكثيراً ما تكون الممارسات الاجتماعية ذاتها

سبباً فى حدوث التخلف وعائقاً من عوائق التقدم. ولذا كان من لضرورى أحياناً التخلص من بعض هذه الممارسات لتمكين القوى لاجتماعية القادرة على التطور من أن تلعب دورها فى دفع لمجتمع للأمام. ويتطلب هذا جهداً مكثفاً ومدروساً يوجه نحو تكوين وترسيخ اتجاهات وقيم جديدة تستجيب لمطالب التنمية ولا تكون عائقاً فى سبيلها.

ونحن بلد به شرائح كبيرة - تمثل جزءاً من ثروتنا البشرية - ما زالت تتخطى حد الفقر، وإدخالهم فى المؤسسة التعليمية وإلزامهم بالتعليم مسألة تتعلق بالأمن وبالسلام الاجتماعى لأن هذه الشرائح لو تركت لشأنها لن تتعلم. ففى جنوب الوادى على سبيل المثال يوجد أطفال صغار لا يلبسون أحذية وأطفال يسقطون فى طابور الصباح فاقدى الوعى لعدم تناولهم طعام العشاء والإفطار. ويوضح الجدول الإحصائى أمراض سوء التغذية للأطفال فى بعض الدول..(*) إن مسئولية المجتمع هى أن يرعى تلك الشرائح لأنهم إذا تركوا سيصبحون خطراً على الدولة وأمنها القومى وعلى السلام الاجتماعى. وإهمال هذه الشرائح هو إهدار خطير لثروتنا البشرية وتهديد لقدرتنا التنافسية، ويمكن تشبيهه بدولة تريد دخول كأس العالم لكرة القدم وتختار خمسة أو

(*) أنظر جدول (١٧) بملحق الجداول صفحة (٢٣٤).

ستة من أعظم اللاعبين ولم تستطع إيجاد غيرهم وتدخل ضد أحد عشر لاعباً قد يكونون فى مستوى متوسط، والنتيجة معروفة أن الفريق المكتمل العدد سوف يهزم الفريق المكون من خمسة أو ستة من أعظم اللاعبين. ولذلك لا تستطيع دولة أن تدخل بشريحة غير مكتملة فإذا نحن فرضنا أسلوباً يحرم هذه الفئة من التعليم فإننا بذلك نهمش جزءاً من قوتنا البشرية.

إن إكساب الطالب أو الطفل قدرات التعلم الذاتى مسألة مهمة جداً، وإعداد المواطن القادر على مواجهة الحياة فى مجتمع ديمقراطي، وتمكينه من معرفة حقوقه وواجباته، وتدريبه على ممارسة هذه الحقوق والواجبات، ومعرفته بمؤسسات المجتمع السياسية والقانونية والمالية والإدارية، ومشاركته فى ترسيخ ثقافة وحضارة المجتمع، واستعداده للخدمة العامة فى إطار هذا المجتمع مسألة أساسية فى تنمية الثروة البشرية، وهناك مجموعة من الآمال والأهداف الكبرى التى يجب تحقيقها فى هذا المجال وهى:

١- تكافؤ الفرص
٢- التوسع فى التعليم
٣- التعليم للتميز والتميز للجميع
٤- الجودة الشاملة
٥- تنمية الطفولة المبكرة

الهدف الأول تكافؤ الفرص وهو مبدأ نحن متفقون عليه ويجب أن نحرص على تطبيقه وصيانته وحمايته بكل الطرق، ويستلزم منا استكمال البنية الأساسية للمعرفة لمواجهة هذه المنافسة العالمية الضارية، وذلك بالقضاء على الأمية لأن محو الأمية هو بداية أساسية ونقطة انطلاق محورية في سبيل دعم البنية الأساسية للمعرفة، فلا يعقل ونحن نتكلم عن استكمال البنية الأساسية للمعرفة أن نقبل بداية تهميش نسبة مئوية من المواطنين ذوى القدرة المتدنية والمهمشين عملياً عن متابعة مقتضيات التقدم والتطور، وعاجزين فعلياً عن المشاركة في بناء وتدعيم الرصيد القومي للمعرفة ويشكلون عملياً إهداراً خطيراً للثروة البشرية وبطالة فاضحة لجزء من قوة العمل المصرية.

إن الإنفاق على محو الأمية مهما بلغت تكاليفه يتضاءل بجانب ما يمكن توفيره من فاقد قومى مهدر حتى الآن نتيجة ضعف إنتاجية الأميين: (انتقاص إنتاجية المتعلمين بوجود أميين معهم - تكاليف تلوث البيئة - تكاليف سوء استخدام المرافق العامة - تكاليف الرعاية الطبية اللازمة لمواجهة نتائج الجهل وعدم الدراية بالجانب الوقائى وتدنى العادات الصحية السليمة - تكاليف تنظيم الأسرة - تكاليف التطرف والإرهاب التى يمكن أن تعد الأمية رافداً أساسياً من روافدها). لذلك يجب رفع قدرات وخبرات هذه الثروة البشرية

إلى المعايير العالمية فنحن لا نملك حرية التعامل بمعايير محلية فى مسابقة عالمية، ولا نملك ترف ترك شريحة من المصريين دون أن نستعين بها أو نقطع عليها خط الرجعة فى أن تكون قوة منتجة فى هذا السباق العالمى.. لأن هذا يعد نوعاً من الانتحار، ولا نملك ترف أن ندخل بقوتنا البشرية منقوصة إلى هذه المنافسة العالمية. فمقدار قدرتنا على حشد الثروة البشرية بأكملها هو معيار أساسى لقدرتنا على المنافسة العالمية. إن الظروف المحلية سواء كانت مناخية أو اقتصادية أو اجتماعية هى ظروف تخصنا نحن ولا تخص العالم، ولا يجوز أن نتعلل بها.. فعندما ننافس في سوق دولية لن تقبل هذه السوق منا أعذاراً ولن تقبل منا شهادة فقر أو شهادة عجز ولن تقبل منا شهادة مرضية ولن تعطينا ميزات لا تعطيها لدول العالم الأخرى، فنحن كلنا فى منافسة مفتوحة.. وهذه المشاكل المحلية تصلح أن تكون مجالاً للمناقشة بيننا لكى نستطيع أن نتغلب عليها، ولكن لا تصلح بأى حال من الأحوال أن تكون مبررا أمام السوق الدولية لكى تشفع لنا فى عدم الأخذ بالنظم الجديدة أو لغة العالم الذى نعيش فيه حالياً.

الهدف الثانى هو التوسع فى التعليم الذى يقتضى الإلزام الكامل لكل الأطفال فى سن التعليم، فقد وصلت نسبة الاستيعاب إلى ١٠١,٧٪ وانخفضت نسبة التسرب فى التعليم الابتدائى إلى ٠,٨٧٪ بعد أن كانت ٣,٨٥ ٪ سنة ١٩٩١ ووصلت نسب التسرب فى التعليم

الإعدادى إلى ٣,٠٢ ٪ بعد أن كانت ١٠,٨١ ٪ سنة ١٩٩١، ولكن معظم هذه التغيرات تغيرات كمية. وقد جاء الوقت لنركز على التغيرات الكيفية للجودة، وليس معنى هذا أننا لم نحقق ارتفاعاً فى معدلاتها، فالجهد الذى بذل فى تطوير المناهج وتدريب المعلمين وإدخال تكنولوجيا التعليم حقق نقلة نوعية ولكن ليس بالقدر الذى نتمناه. كما يجب إعطاء فرص للاستمرار فى التعليم لأكبر عدد من السنوات لأن مستوى التعليم يؤثر على فرص العمل المتاحة ويؤثر على قدرة الإنسان الاقتصادية وعلى مركزه الاجتماعى، وقد أثبتت الدراسات الاقتصادية أنه إذا كان متوسط سنوات التعليم للمواطن على مستوى أى دولة ست سنوات فقط لا يحدث فيها تقدم اقتصادي، وإذا كان من ست إلى تسع سنوات يحدث بعض التقدم الاقتصادى، أما الدول التى استطاعت أن تحقق استمرار التعليم لفترة أكثر من تسع سنوات كالولايات المتحدة الأمريكية واليابان وألمانيا وإنجلترا فقد حدث فيها انطلاق اقتصادى مؤكد. وهذا مرتبط أيضاً بالإنفاق على التعليم، فهناك دراسة للبنك الدولى تؤكد أنه إذا أنفق على الطالب أقل من ٥٠٠ دولار لا يحدث تقدم اقتصادى ملموس، ومن ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ دولار يحدث تقدم اقتصادى محدود وأكثر من ٥٠٠٠ دولار يحدث انطلاق اقتصادى بلا حدود، فهذا المبدأ مهم جداً يجب أخذه فى الاعتبار. ويشير الجدولان الإحصائيان إلى نسبة

الإنفاق على الطالب فى مرحلة التعليم الأساسى، وفى مرحلة التعليم الجامعى فى بعض الدول.(*) إن حشد كل الثروة البشرية المصرية فى منظومة التعليم والتعلم هدف يتعين الوصول إليه بأسرع ما يمكن، وهو ما يقتضى وقف التسرب من التعليم نهائياً والقضاء على الأمية وزيادة سنوات التعليم للفرد وزيادة شريحة التعليم الجامعى. وتوضح الجداول الإحصائية السلم التعليمى، التعليم الجامعى للطالبات، الالتحاق بالتعليم الجامعى، الطلبة الجامعيون فى العلوم والرياضيات والهندسة من إجمالى طلاب الجامعات فى بعض الدول.(**)

الهدف الثالث هو مبدأ التعليم للتميز والتميز للجميع لأننا اليوم مع سيادة نظام العولمة وبعد أن أصبحت قدراً محتوماً يجب أن نتساءل هل ندخلها فاعلين قادرين منافسين؟ أم ندخلها مهمشين ضائعين يائسين؟ إن الدولة الجادة التى تدخل فى هذه المنافسة الدولية ويكون لها مكان فى هذا السباق لابد وأن تعبئ قوتها البشرية بلا استثناء وأن ترفع قدرتها إلى أعلى مستويات الكفاءة والخبرة بحيث تشكل لنفسها ميزة تنافسية Competitive Edge على المستوى العالمى. ومن هنا فإن مبدأ التعليم للتميز والتميز

(*) أنظر الجداول (١٨، ١٩) بملحق الجداول صفحة (٢٣٥ : ٢٣٦).

(**) أنظر الجداول (٢٠-٢٤) بملحق الجداول صفحة (٢٣٧ : ٢٤١).

للجميع لم يعد شعاراً ترفياً أو حلماً من الأحلام إنمـــا أصـــبح ضرورة بقاء وضرورة للأمن القومى المصــرى والمنافســة العالمية، فلا مكان فى هذا العالم للجهلاء أو أنصاف المتعلمين ولا مجال للصدارة فيه إلا للمتميزين والمبدعين. ولذلك فقـد وضع الرئيس حسنى مبارك هذا المبدأ فى الوثيقة الثانية لعقد الطفل المصرى وأكد على أنه هو هدف التعليم فــى المرحلــة الحالية والمقبلة.

الهدف الرابع هو تحقيق مبــدأ الجــودة الشــاملة Total Quality Management (TQM) وهو مرتبط إلى حــد كبير بالتعليم للتميز. فالعـالم كلـه اليـوم فـى إطـار النظـام العـالمى الجديد الذى اجتاح كـل الحـواجز والسدود والحـدود يعتنـق مبـدأ الجودة الشاملة.. وبالتالى فالعالم كله مشترك في صـراع رهيـب فـى سوق عالمية واحدة تتنافس فيها كل الدول، وليس أمامها مـن سبيل إلا تحقيـق مبــدأ الجــودة الشامــلة الـذى يتطلـب أن يـنجح نظـام التعليم في تعظيم قدرة الإنسان المشارك في عملية التنمية.

ونحن دولة تتنافس أمام دول تعتنق هذا المبدأ وتنتج إنتاجـاً لا يحتمـل الخطـأ Zero Error Management فـلا نسـتطيع أن ندخل بتكنولوجيا متدنية، أو بقـوة بشـرية ذات كفـاءة محـدودة.. ففى ظل النظام العالمى المبنى على سيطرة التنين الإلكترونى واتفاقية الجات أصبحت فرص العمل المتاحـة ليسـت علـى نطـاق محلـى بـل

أصبحت على نطاق عالمى وأى فرد فى ظل هذا النظام الدولى يستطيع الانتقال إلى أى مكان ويزيح القائمين بالعمل فى هذا المكان إذا كان أفضل منهم قدرة وخبرة ويهمش أيضاً مواطنى الدولة التى ذهب إليها، فإذا نحن سمحنا لأنفسنا بأن تكون قوتنا العاملة ليست على المستوى المطلوب من الخبرة والقدرة ولا تتمتع بمفاهيم الجودة الشاملة فإن أولادنا لن يجدوا فرصة للعمل وأى أجنبى يستطيع أخذ تلك الفرصة منهم وإزاحتهم عن مصدر كسبهم واليوم ليس أمامنا من مفر إلا الاستعداد للمنافسة القادمة، فنحن مطالبون بأن نبدأ من حيث انتهى الآخرون وأن نستغل كل طاقة أمل فى هذا الشعب وأن نستثمر كل طاقة بشرية موجودة فى بلادنا، ولن نفلح إلا إذا كنا صفا واحدا متراصا وأسرة متحابة متماسكة لا يشغلنا إلا مصلحة هذا الوطن ولا نضع لأنفسنا بديلا إلا الانتصار فى هذا السباق العالمى.

وهناك أولويات فى العمل يجب التركيز عليها لضمان الجودة الشاملة ولضمان فاعلية التطوير أهمها الأخذ بالتجارب والمفاهيم التربوية الجديدة التى تستهدف الارتفاع بكفاءة التعليم وتحسين جودته، والانتقال به من دائرة "المحلية" إلى آفاق أرحب وأكثر اتساعا وشمولاً تؤهله لأن يكون قادراً على الدخول بخطوات واثقة فى المنافسة العالمية.. ومن هذه التجارب والمفاهيم "الاعتماد التربوى للمدرسة" Accreditation. وهو نظام يقوم على مجموعة من

الإجراءات التى يجب الالتزام بها واتباعها ضماناً للجـودة الشـاملة التى تتطلبها ظروف المنافسة العالمية.

الهدف الخامس هو تنمية الطفولة المبكـرة وهـو مـرتبط بهدف الوصول إلى التميز للجميــع، فالمنافسـة العالميـة منافسـة ضارية من أجل التقدم والتميز، وأحد قواعد الوصول إلى القمة عندما تحتدم المنافسة أن نغير قواعـد اللعبـة، وهـذا ممكـن الآن فـى ظـل الاكتشافات والحقائق العلمية التى أثرت تأثيراً ثورياً على نظريـات التعليم ونتائجـه، وهو ما ثبت فى العقد الأخيـر مـن القـرن الماضى-الذى أطلق عليـه عقـد المـخ البشـرى Brain Decade – وقد كان "جاردنر" سباقاً فى هذا المجـال وثبـت علمياً أن هناك عـدة أنـواع مـن الـذكاء "Gardner's Theory" يولد بها الإنسان كالذكاء الموسوعى أى القـدرة على تذكر قدر كبير جدا من المعرفة، والتصورى، والمنطقى، واللغوى، والحسابى، والرياضـى، والموسـيقى، والتـوافقى الحركى، والاجتماعى، والعاطفى، والعملى، والذكاء البصرى.. مع ضرورة تنمية كل هذه الأنواع جنباً إلى جنب، حيث إنهـا تتساوى فى الأهمية وتتكامل ويعزز بعضها البعض ولا يمكـن أن نقول أن أحد هذه الأنواع من الذكاء أكثر أهمية من الآخر. ويستلزم ذلك أن يركز التعليم على تنمية كل نوع من أنـواع

الذكاء مما يساعد على التنمية السوية لشخصية الطفل، حيث يتغير المخ فسيولوجياً وعضوياً نتيجة للخبرات المضافة إليه من البيئة التي يعيش فيها ويتفاعل من خلالها مع المجتمع المحيط به. فكلما كانت البيئة ثرية كلما زادت التغيرات التي تحدث في المخ نتيجة للأثر الهائل للإثارة والتجربة والحفز مما يؤكد على ضرورة تعرض الطفل إلى ألعاب تنمى الذكاء، وخبرات تنمى القدرات وتعوده على الاعتماد على الذات، وحل المشاكل بنفسه، والبحث عن المعلومة، والاطلاع على وسائل الإعلام المختلفة، واصطحابه إلى الأماكن الطبيعية لتنمية حواسه، وتوفير الساحات الرياضية، وأماكن ممارسة الهوايات التي تنمى القدرات المستقبلية، والاهتمام بالأنشطة التربوية وثقافة الطفل.

إن كل هذه الأنواع من الذكاء تكون موجودة لدى كل طفل عند ولادته لكنها تحتاج إلى رعاية وتنمية. ومن الغريب أن هذه الأنواع مواقعها فى العقل البشرى مختلفة، وأساليب عملها مختلفة، وتخضع لمبدأ يسمى بنوافذ فرص التعليم أو المعرفة "Windows of Opportunities" فكل نوع من أنواع الذكاء تتفتح له نافذة يمكن من خلالها دعم وتنمية هذا النوع من الذكاء لدى الطفل. وقد أظهرت نتائج الأبحاث أن أكثر من ٩٠% من الأطفال يستطيعون الوصول إلى مرحلة التميز إذا ما أعطى كل واحد منهم الوقت الكافى والتعليم

المناسب. كما أن هناك حقيقة علمية تقول أن نسبة النوابغ ١% من تعداد أى شعب، أي أن لدينا أكثر من ٦٠٠ ألف نابغة ينتظرون من يكتشفهم وينمي قدراتهم ويجعل منهم قاطرة للتقدم.

ومن المعروف أن هناك مدة زمنية محددة خلال مرحلة الطفولة تتفتح فيها نوافذ فرص المعرفة لتعلم خبرات معينة يكون من الصعب بعدها اكتساب هذه الخبرات. وعلى سبيل المثال، فإن نافذة تعلم اللغات تتفتح فى السنة الأولى من العمر وتكاد تغلق فى السادسة أو السابعة، وتتفتح نافذة الذكاء والتذوق الموسيقي والفني فى السنة الأولى أيضاً ثم تكاد تغلق فى سن العاشرة، وتغلق نافذة الذكاء التوافقى الحركي والقدرات الحركية الدقيقة وصقل المهارات اليدوية المتميزة فى سن الحادية عشرة، ومن المعروف أن كل نوافذ الفرص لا تغلق مرة واحدة أو بصورة مفاجئة ولكن هناك سلسلة من النوافذ كنافذة اكتساب مهارة تكوين الجمل وتركيبها بصورة صحيحة فإنها تغلق في سن الخامسة أو السادسة بينما تظل نافذة اكتساب الكلمات الجديدة مفتوحة طوال العمر، وببلوغ سن ١٨ سنة تقريباً تقل نسبة المرونة في المخ ولكن تزداد قدرته الإنتاجية، لذا فإن إهمال الطفل لتعلم اللغات الأجنبية المختلفة حتى نهاية المرحلة الثانوية سوف يؤدى إلى وجود صعوبة كبيرة فى تعلمها فيما بعد.

والمخ البشرى يبدأ عند الولادة بمائة مليار خلية عصبية ويبدأ في تكوين تفرعات أشبه بالشجرة مع الخلايا الأخرى حتى يصل عدد هذه التفرعات إلى مائة تريليون تفرع في السنوات الأولى من العمر، لكن المخ البشرى يتبع قانوناً قاسياً وصارماً وهو "ما لا يستعمل يفقد" "Use it or lose it"، فإذا لم نستفد من نوافذ فرص التعلم وإذا لم ننمِ كل أنواع الذكاء، فإن قدرتها تقل تدريجيا ويتوه ويضل الإبداع فى غياهب النسيان. والحقيقة العلمية تدلنا على أن المشكلة تتمثل فى البداية المتأخرة، لذلك يجب أن يضع التعليم البنية الأساسية بالكامل فى السنوات الأولى من العمر وبالأخص السنوات الست الأولى من العمر.. لكن جزءاً من هذه السنوات لا يقع تحت سيطرة المؤسسة التعليمية وهى السنوات الأربع الأولى من العمر، ولذلك فلابد من وجود آلية تضمن تنمية قدرات الطفل فى تلك السنوات أيضاً والاستفادة منها، فمهما كانت براعة العملية التعليمية فهى تتوقف على مقدار رعاية الطفولة فى تلك السنوات، كما يجب أن يتخطى التعليم الحدود المكانية والزمانية المتعارف عليها خلافاً للتعليم التقليدي، ويتطلب ذلك أن يتخطى التعليم أسوار المدرسة بدلاً من أن يقتصر على ما بداخلها.. فيكون في الأسرة والمجتمع ممثلاً في الجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية ورجال الأعمال ومؤسسات الإعلام. كما يجب أن يتخطى حدود

الزمان بأن لا يقتصر بدء التعليم على سن الرابعة، بل يجب أن يبدأ مع السنة الأولى من العمر.

إن كل طفل سوياً كان أم معاقاً يمتلك منظومة خاصة به من هذه الأنواعٍ من الذكاء بنسب مختلفة تشكل شفرة عقلية له لا تفترق كثيراً عن البصمة الجينية أو عن البصمة اليدوية. وهذه الشفرة يلزم اكتشافها مبكراً وفك شفرتها والتعامل معها بما يصل بالطفل إلى قدرات عقلية متميزة. وثبت هذا الكلام عمليا ومعملياً بالأجهزة الحديثة وأصبح يمثل البنية الأساسية للمعرفة. فالطفل الذى يتعرض للحفز والإثارة المناسبة فى مرحلة الطفولة المبكرة وتستثمر عنده نوافذ فرص التعلم فإنه يصل إلى آفاق وإمكانات لا يستطيع الطفل الذى لم يستفد من هذه النوافذ أن يصل إليها مهما بُذِلَ معه من جهد.. وتظهر الفجوة بين مستوى الأطفال الذين تعرضوا للحفز والإثارة والتنمية فى مرحلة الطفولة المبكرة وأولئك الذين افتقدوا هذه الرعاية الواجبة، إذ يتمتع الطفل الذى نال تلك الرعاية بميزات كثيرة ويظهر أثرها على دخله فيما بعد، وتتحقق له حياة أفضل، كما يتحقق له التآلف الاجتماعى، وتقل معدلات إنجابه ومعدلات ارتكابه للجرائم. كما ينشأ إنساناً سليماً حيث تقل فرص إصابته بالأمراض كالضغط والقلب والسكر. ولذا يجب أن يكون لنا السبق فى الاستفادة من هذه الاكتشافات العلمية الهائلة إذ يمكن أن تشكل لنا ميزة

تنافسية تعوضنا عن سنين طويلة من التخلف، وتسهم بشكل رئيسى فى تكوين الرصيد القومى المعرفى.

إن العناية بالطفولة المبكرة ليست قضية خيرية وإنما هى قضية استثمار وضرورة مجتمعية، وإن دمج الأطفال أصحاب الظروف الخاصة مع بقية الأطفال ليس من باب العطف أو الشفقة أو الرعاية لفئة ضعيفة أو مستضعفة إنما هى ضرروة مجتمعية وتطبيق لمبدأ قبول الآخر ونوع من التكامل يبين قدرات مختلفة. كما أنه يمكن تنمية نوع أو أكثر من أنواعٍ الذكاء لدى أصحاب الاحتياجات الخاصة، فقد نجد شخصاً من ذوي الاحتياجات الخاصة متميزاً في ناحية معينة كالناحية الموسيقية أو الرياضية مثلاً.

ويعد الاستثمار فى مرحلة الطفولة المبكرة الاستثمار الأمثل لأية أمة خاصة فى عصر يقوم فيه الاقتصاد على المعرفة، فقد بينت الدراسات التى أجريت عبر الأعوام الثلاثين الماضية أن توفير الرعاية للأطفال فى مرحلة الطفولة المبكرة له فوائد كثيرة، وأن عائد تقديم برامج رعاية الأطفال فى السنوات الأولى من العمر تعادل أضعاف تكلفة تلك البرامج، وقد تبين كذلك أنه إذا تأخرنا فى تقديم الرعاية إلى ما بعد أن يتخطى الطفل تلك السنوات المهمة، فإن الفوائد ستكون أقل كثيراً.

وهكذا فإننا ينبغى أن نبذل أقصى جهودنا وأن نفعل كل ما نستطيعه للاستثمار فى تلك المرحلة المهمة، حيث أوضحت بعض دراسات البنك الدولى أن نسبة العائد الاقتصادى لمشروعات الطفولة المبكرة تحقق أكبر عائد اقتصادى إذا ما قورنت بالمشروعات الزراعية أو الصناعية، وعلى سبيل المثال فإن العائد الاقتصادى فى مشروع "بيرى" لمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية هو ٧,١٦ أى أن كل دولار ينفق يعود بقيمة مضافة ٧,١٦ من الدولارات. فكل استثمار يقدم فى تلك المرحلة يعود علينا بالفائدة فيما بعد. وقد تبين من خلال الدراسات التى أجريت على أن العائد الاقتصادى من برامج الطفولة المبكرة يتراوح بين ٣,٠٦ فى بوليفيا و٣,٠٠ فى الفلبين–فى حين يتراوح العائد الاقتصادى لمشروعات الغابات والرى وتربية الحيوانات والأسمنت ما بين ١,١٨ و١,٤٨ و١,٥٩ و٢,٢٧ (*)– وهذا يعنى أن المجتمع يسترد ما دفعه بل ويحصل على فوائد من الاستثمارات التى ينفقها فى مرحلة الطفولة المبكرة.

وهنا يجب أن نتنبه جميعاً إلى أن استثمار مرحلة الطفولة المبكرة في التعلم وتنمية قدرات الطفل العقلية يجب ألا يتم على حساب حق الطفل في ممارسة طفولته، فمن المهم جداً التوفيق بين متطلبات التعلم وحق الطفل في التمتع

(*) أنظر الجدول (٢٥) بملحق الجداول صفحة (٢٤٢).

بطفولته وإشباع حاجاته الطبيعية، كالحاجة للحب والحنان والعطف والتقدير والانتماء وحب الاستطلاع والنجاح، وعلى العكس فإن الخوف والرهبة والتوتر والقلق والإجهاد تحد من قدرات الطفل على التعلم. لذلك فإن أساليب التعليم في هذه الفترة يجب أن تختلف جذرياً عن مرحلة التعليم الأساسي فيما بعد سن السادسة. ففي مرحلة الطفولة المبكرة يجب أن نركز على ما يحبه الطفل وما يخاطب رغباته الدفينة، كما يجب أن نحببه فيما يتعلم، وأن نراعي خصائص مرحلة الطفولة المبكرة في النمو السريع والحساسية البالغة للعوامل البيئية والجغرافية والمجتمعية التى تؤثر على النمو تأثيراً بالغاً، فالبيئة تؤثر فيه بشكل كبير لذا فإن إثراء البيئة التى يعيش فيها الطفل ذات أثر بالغ فى عملية التنشئة.

ولذلك يجب أن نركز على عدة محاور رئيسية أراها تشكل مهام قومية عاجلة وأساسية:

• **أن يبدأ التعليم قبل السن المدرسي**، لأن التعليم يجب أن يبدأ قبل سن مرحلة رياض الأطفال خاصة تعليم اللغات والموسيقي والمهارات اليدوية الدقيقة.

• **العناية الفائقة بمرحلة رياض الأطفال**، ولابد أن نوفر مكاناً لكل طفل في مصر في هذه المرحلة الهامة التي سبق وأن أوصى بها مؤتمر التعليم الابتدائي أن تضاف إلى مرحلة التعليم الإلزامي، وأن تتناسب مبانيها من حيث مساحة الفصول، والأثاث،

والتهويــة، والنظافــة، والأفنيــة، والمنــاهج، وكثافــة الفصــول، والمعامل، والأنشطة، ووسائل الترفيه مع هذه المرحلة العمرية.

•استخدام أساليب تدريس مبتكرة تخاطب كل أنواع الذكاء وكل حواس الطفل وعواطفه بالصورة والإشارة.. بالأغنية والعبارة.. بالموسيقى والرياضة.. بالإثارة والحماس.. بالتشجيع والرعاية.. بالمسرح والأنشطة.. بالمكتبة وقاعات البحوث.. وتستغل كل موارد المعرفة من كتاب وموسوعة وكمبيوتر وآلة موسيقية.

•أن يتبنى المدرسون أسلوباً في التدريس يخاطب كل الحواس ويثير الحماس وينمي المواهب والمهارات المختلفة بتشجيع الطفل على الجري واللعب لتنمية ذكائه العضلي والحركي وبالتحدث معه لفترات طويلة لتنمية ذكائه اللغوي...الخ .

•أن يستخدم المدرسون الوسائل التكنولوجية التي تتمشى مع المستوي العقلي للطفل وأسلوب تفكيره للوصول بقدراته ومواهبه إلى أقصي ما يمكن أن تصل إليه، ولتنمية قدرات الاستكشاف والإبداع والابتكار والتعبير القائم على المشاهدة الحسية باستخدام الألعاب الملموسة وتصنيعها بشكل يسمح بتدريج مستوياتها، ويشجع على حلها وتركيبها وتشكيلها مع الاهتمام بالتربية الموسيقية والتربية الفنية، والتأكيد على قيمة العمل

الجماعي والحوار واحترام الرأي والرأي الآخر، والتأكيد على اكتساب مهارات الأسلوب العلمي في التفكير.

•**تطوير المناهج لتواكب الألفية الثالثة، بالتركيز على مفاتيح المعرفة وطرق البحث**، وعلى المهارات الحياتية والاتصالية، وعلى الجانب التطبيقى القائم على التجريب وتأدية الطفل عملياً لما يتعلمه نظرياً.

•**إتاحة الفرصة لكل أنواع النشاطات داخل أسوار المدرسة وخارجها** بالإضافة إلى الرحلات والمشاهدة الميدانية.

•**أن يمتد الفكر الجديد في التنمية الشاملة للطفولة المبكرة إلى الأطفال أصحاب الظروف الخاصة.** فالاكتشافات الحديثة تعطينا وتعطي أطفالنا الذين حرموا من بعض القدرات أملا جديداً في اكتشاف الطاقات التي لم يحرموا منها وفي تنمية مواهب لم تصل إليها الإعاقة وتشكل لهم طاقة نور وقدرات تمكنهم من حياة أفضل وأسعد.

•**الاستغلال الأمثل لمرحلة الطفولة المبكرة قبل رياض الأطفال ومراعاة ميولهم**، وفتح نوافذ الفرص أمامهم، لإبراز وتنمية مواهبهم واستعداداتهم باعتبارهم ثروة مصر البشرية.

•**أن تقوم الأسرة بدورها فى مرحلة الطفولة المبكرة لتنمية ما لدى الطفل من ذكاء ومواهب متعددة على مدى سنوات العمر** لأن دور الأم في مرحلة الطفولة المبكرة لا يعادله

دور آخر، فهي القادرة بالعلم والتعلم والتوجيه السليم والتدريب على تعليم طفلها في مرحلة الطفولة المبكرة بالإثارة والحفز والتشجيع والحنان واستغلال نوافذ الفرص المتاحة لها بكافة وسائل التعبير وتنمية كل أنواع الذكاء بحيث يصل الطفل إلى أقصى إمكاناته التي وضعها فيه الخالق سبحانه وتعالى.

• **وهذا يقتضي عمل دورات تدريبية للوالدين لتوعيتهم بكيفية التعامل مع أطفالهم في مرحلة الطفولة المبكرة** ومحاولة اكتشاف مواهبهم وتنميتها ورعايتها وحفزهم على الاستكشاف والاستطلاع والعمل على تشجيعهم وإشباع حاجاتهم الطبيعية لتحقيق الاستقرار النفسي للطفل وتجسيد القيم الحميدة في سلوك الأطفال.. وهو ما يضيف مسئولية جديدة وأساسية للمؤسسة التعليمية.

• **أن توفر الأسرة التغذية السليمة للأطفال مع تحسين نوعية التغذية وضمان نظافتها وصحتها** ذلك أن الغذاء الجيد يؤثر تأثيراً ملحوظاً على عملية النمو الجسمى والفسيولوجي والحركي والحسى، وكذلك على مستوى التحصيل الدراسى والعلمى. فقد أكدت الأبحاث العلمية على أن الغذاء المتكامل الذى يوفر للأطفال في سن الطفولة المبكرة والسعرات الحرارية الكافية والمواد الغذائية الأساسية من بروتين ومعادن وفيتامينات، يعد ضرورة حيوية للنمو السليم والقدرة على التعلم

والاستيعاب وحماية الأطفال في هذه السن المبكرة من مخاطر تعرض خلايا المخ لتلف مستديم يؤثر على قدراتهم المستقبلية نتيجة لنقص بعض هذه العناصر. ومن هنا فإن التغذية السليمة في مرحلة الطفولة المبكرة لا تشكل فقط ضرورة صحية، وإنما هي أيضا ضرورة تعليمية وتنموية.. كما يجب أن تهتم المؤسسات الصحية بالخدمات الصحية الوقائية، وتوفير متطلبات الطفل الغذائية.. وكذلك أصبح للممرضات والأخصائيين الاجتماعيين دور كبير في تنشئة الطفل تنشئة سوية.

• **أن تهتم الأسرة بتعليم الأطفال طرق الوقاية والسلوكيات التي تدعم النظافة الشخصية ونظافة المنزل وتجنب تلوث البيئة .**

• **أن توفر مؤسسات الرعاية الاجتماعية للطفل الجو الأسري السوي من الناحية الصحية والجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية والروحية،** وأن تركز على تربيته على قيم الحق والخير والجمال.

• **ضرورة تكاتف وتعاون مؤسسات الرعاية الاجتماعية ورجال الأعمال والجمعيات غير الحكومية مع المؤسسة التعليمية للقيام بدورها تجاه مرحلة الطفولة المبكرة.** فالجمعيات غير الحكومية تستطيع أن تؤدي خدمات في غاية الأهمية في مجالات مختلفة من مجالات تنمية الطفولة سواء

من الناحية التعليميـة أو الصحية أو الإرشادية، كما أنها كفيلة بدعم الجهود الذاتية والتمويلية لهذه الأنشطة الهامة.. إن نجاح رجال الأعمال مرتبط بإعداد قوة عمل متميزة تستطيع أن تدخل عصر التكنولوجيا والمنافسة العالمية، ويقتضي ذلك توافر شريحة عريضة من هذه النوعية وليس قلة متميزة وهذا يحتم أن يكون الهدف في المرحلة القادمة هو التميز للجميع Excellence For ALL ، وذلك يفرض مسئولية مشتركة بين القطاع الخاص ورجال الأعمال والجمعيات غير الحكومية وبين وزارة التربية والتعليم ويشكل مصلحة مشتركة بين الطرفين تقتضي تعاوناً وثيقاً ومخلصاً خاصة فيما يتعلق بتحديد المواصفات المطلوبة لقوة العمل المصرية التي يمكن أن تساعد القطاع الخاص على المنافسة العالمية.

• **لابد من غرس الحافز للعمل التطوعي**، وتوسيع نطاق المشاركة في نشاط النهوض بالطفولة إلى أوسع مدى ممكن، فالنهوض بالطفولة مسئولية الجميع، دون استثناء، مع التنسيق الفعال بين مختلف الجهات التي تنشط في هذا الميدان.

• **أن تعمل المؤسسات الصحية على دعم نشر الوعي الغذائي الصحي**، وأن تضع الخطط الكفيلة بتحقيق الرعاية الصحية للأطفال واتخاذ كافة الوسائل لوقايتهم من الإعاقات وخصوصاً أن بعضها يتأتى نتيجة لأمراض مزمنة أو حوادث يتعرضون لها.

• **حتمية أن يكون هناك دور لأطباء الأطفال والممرضات العاملين في الرعاية الصحية للطفولة المبكرة في اكتشاف مواهب الأطفال**، وتنمية الأنواع المختلفة من الذكاء، واستثمار نوافذ فرص التعلم، وتدريب الأمهات والآباء على تنمية قدرات أطفالهم. إن ذلك يقتضي منا أن نفكر في تضمين مناهج وطرق إعداد الأطباء والممرضات ما يمكنهم من تحمل هذه المسئوليات التعليمية الجديدة بجانب مسئولياتهم الطبية الهامة.

هناك شبه اتفاق عام بين الاقتصاديين على أن أسباب النمو الاقتصادى لا تقتصر فقط على الجوانب الاقتصادية - المتمثلة فى المدخرات ورأس المال المادى والموارد الطبيعية وسياسات التجارة واستقرار الأسعار ومرونة الأسواق والإنفاق الحكومى المنخفض - وإنما تنطوى على أسباب اجتماعية غاية فى الأهمية وهى تقديم تعليم متميز، وتوفير الرعاية الصحية الجيدة، والاهتمام برأس المال البشرى، والعمل على تحقيق العدالة والمساواة بين كافة أفراد المجتمع. وفى الحقيقة فإن تحقيق التفاعل بين تلك المكونات الخمسة السابقة هو ما تهتم به منظمات الأمم المتحدة حيث تعمل على وضع السياسات والاستراتيجيات التى تحقق ذلك.

التعليم وصناعة التفوق

إن التعليم بمعناه العصرى هو التعلم مدى الحياة، وتمكين الإنسان من خبرات التعلم الذاتى، وهذه مسألة أساسية لأن المؤسسة التعليمية فى أحسن أحوالها فى أى دولة فى العالم المتقدم لا تشكل إلا ٤٠% من الإطار المعرفى للإنسان، أما الـ ٦٠٪ فيكتسبها من خلال التعلم الذاتى الذى يركز على الخبرات والقدرات قبل الحفظ والتلقين، ويركز بجانب الإطار المعرفي على القدرات الحياتية والاتصالية والإبداعية التى تشكل قدرة الإنسان على حل المشاكل والابتكار وعلى اقتحام المجهول، ذلك هو التعليم الذى يشكل ما نسميه "صناعة التفوق"، لأن صناعة التفوق هى سلاح الأمم الآن في سباق عالمى لا مكان فيه للضعفاء والمستضعفين ولا مكان فيه للجهلاء المتخاذلين.. وهي دعامة أساسية للأمن القومي المصري، وهي ميزة تنافسية يجب أن نستثمرها الاستثمار الأمثل، وفق خطة محكمة. فلم يعد التفوق ظاهرة إحصائية أو صدفة سعيدة أو طفرة استثنائية، كما أن رعاية التفوق لم تعد فقط صقلاً لهبة نادرة أو ميزة استثنائية أو رعاية لقلة محظوظة وإنما أصبحت صناعة مخططة واستثماراً علمياً لطاقات كامنة، وعملية تنموية متكاملة وطويلة الأمد هدفها الطاقة البشرية بأكملها، ووسيلتها تنمية متكاملة لكل طاقة أمل وكل نوع من أنواع

الذكاء وكل قدرة وخبرة يملكها كل فرد فى هذا المجتمع، وجوهرها حشد مخطط ومنظم للرصيد القومى المعرفى واستثمار أمثل للثروة البشرية فى أى وطن.

ولتدعيم صناعة التفوق يجب أن تلعب المؤسسات والأحزاب السياسية دوراً كبيراً فى التركيز على التعليم ودعمه من خلال الندوات، واللقاءات الثقافية، لتأكيد روح الديمقراطية والوعى السياسى.. وأن تضع على قمة أولوياتها وفى برامجها قضية التعليم واقتراح استراتيجيات تطويره باعتبارها أهم القنوات الشرعية التى تعبر عن احتياجات المجتمع، خاصة أن كل المعارك السياسية والانتخابية الكبرى التى تمت فى السنوات العشر الماضية على مستوى العالم كان التعليم هو محورها الأساسى بداية من الرئيس السابق "بيل كلينتون" حينما أعلن أن القضية الأولى هى التعليم وأنه سيقود حملة مقدسة لتطوير التعليم، ومروراً بـ "تونى بلير" رئيس وزراء بريطانيا حينما حقق النصر الساحق فى المعركة الانتخابية كان السؤال ما هو برنامجك الانتخابى؟ قال: "التعليم.. التعليم ثم التعليم ثم التعليم". وانتهاءً باليابان نفسها - وهى تتمتع بنظام من أحسن النظم التعليمية فى العالم - فهى تشهد الآن نقداً مريراً لنظام التعليم، ويسود المجتمع اليابانى نوع من السخط والنقد اللاذع لهذا النظام، ويقولون نحن استطعنا أن ننقل التكنولوجيا الغربية، وأن نتقدم اقتصادياً، وأن نحرز سبقاً مرئياً فى مجال

التعليم، ولكننا لم نستطع ان نكون مبدعين. فإن عدد الحاصلين على جائزة نوبل من اليابان أقل بكثير من الولايات المتحدة ونظامنا التعليمى بالغ القسوة. والحقيقة الموجودة فى اليابان هى أن الطلبة اليابانيين يذهبون إلى مدارس راقية تقدم مستوىً تعليمياً ممتازاً، وبالرغم من ذلك فإن ٥٠٪ منهم يذهبون لمدارس مسائية، وتصل هذه النسبة إلى ٨٠ ٪ فى الشهادات العامة. فالعالم كله يتحدث عن أزمة التعليم وضرورة تطويره، فإن الوضع الاقتصادى الذى كان قائماً فى كثير من دول العالم كان انعكاساً للنظام التعليمى الذى قام على تخريج موظفين أو منتجين على خطوط إنتاج ثابتة، حيث كان المطلوب منهم أن ينفذوا لوائح وقوانين وقواعد بالتزام دقيق وصارم. أما الآن ونحن فى مواجهة مجتمع مختلف، الإنتاج فيه إنتاج كثيف المعرفة.. إنتاج أفكار ومعارف وبرمجيات "software".. إنتاج يتغير من لحظة إلى أخرى.. إنتاج أساسه الابتكار والقدرة على التكيف والمرونة والملاحقة الدائمة للتغيرات العلمية.. المطلوب فيه مبدعون ومبتكرون ومكتشفون وأناس لديهم القدرة على التخيل وسرعة التغير.. فهل يستطيع النظام التعليمي القائم حالياً أن ينتج السلع المطلوبة غداً؟ الإجابة طبعاً لا. وهذه حقيقة تطرح مسئولية ضخمة جداً على أي نظام تعليمي.

لذلك فقد أعلن الرئيس محمد حسنى مبارك عام ١٩٩٢ أن التعليم هو المشروع القومى الأكبر لمصر وأنه المدخل

الوحيد للخريطة العالمية الجديدة، وأنه سبيلنا الوحيد إلى اللحاق بالثورة التكنولوجية التي تحدث في العالم، واقتحام عصر التكنولوجيا المتقدمة، وهو ما يستوجب علينا أن تكون عملية التطوير عملية مستمرة، وتشمل جميع جوانب المؤسسة التعليمية من طالب، ومعلم ومناهج، وطرق تقويم، ومبنى مدرسى.

المؤسسة التعليمية.. اليوم ونحن فى مجتمع كثيف المعرفة وفى إنتاج يعتمد على الإبداع نحتاج إلى نوعية جديدة من العاملين فى المؤسسة التعليمية مما يستلزم التدريب المكثف سواء أكان للمعلمين أو الموجهين أو الإداريين بهدف التعرف على الأساليب الجديدة للتعليم والتركيز على المهارات والقدرات، وكيفية إدارة التغيير، وإدارة الموارد، وحل المنازعات، واكتشاف الموهوبين، وتوزيع الأنشطة المدرسية، والتعامل مع الجماهير، وتطبيق النظم الجديدة التي تجري في دول العالم المتقدم، والأخذ بمفاهيم جديدة من اللامركزية تحرر الطاقات نحو المشاركة الفاعلة لتنفيذ أهداف تعليم المستقبل، وتبنى مفهوم التجريب قبل التعميم، وإعادة تشكيل الهيكل الإدارى للمؤسسة التعليمية بمفهوم جديد يتفق مع متطلبات العصر.

الطالب.. هناك تغير ملموس فى قدرات أبنائنا نراها بطريقة غير مباشرة فى فوز عدد كبير منهم فى مسابقات عالمية، ونراها فى

الامتحانات العامة عندما يتنافس أولادنا مع أقرانهم في دول أخرى، وفي الشهادات الأجنبية مثل G.C.S.E الإنجليزية وAbitur الألمانية و The American Diploma وشهادات الدول العربية، حيث يحتلون المراكز الأولى ويسبقون أقرانهم في دول كثيرة ومتعددة، إلا أننا في حاجة إلى مزيد من الاهتمام بهم تعليمياً، وصحياً، وثقافياً، وغرس القيم الدينية والأخلاق الحميدة، ومراعاة الآداب العامة، وحسن التعايش مع الآخرين والتعاون معهم، والعمل كفريق، حتى يصل جميع الطلاب إلى مستوى مشترك من المعرفة، والتخلي عن الميل إلى صفة الفردية والأنانية، والارتقاء بالقدرات التعليمية للطالب في مرحلة التعليم الأساسي، وبصفة خاصة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والحاسبات واللغة العربية واللغات الأجنبية. وعلى سبيل المثال، فقد اعتبرت اليابان أنه بحلول عام ٢٠٠٠ فإن المواطن الذى لا يعرف اللغة اليابانية ولغتين أجنبيتين ولا يتقن استعمال الحاسب الآلى هو في عداد الأميين.

لذلك لم يعد كافياً أن نعلم أولادنا مواجهة المشاكل التي تتصل بالماضي الذي تعودنا عليه، أو بالحاضر القريب الذى نعيشه حتى الآن. إنما مسئوليتنا هى أن نعدهم لنوعية من المشاكل نحن لم نقابلها في حياتنا ولم نتعود على حلها فلم يكن لدينا طريقة لقياسها أو التعامل معها وعلينا أن نتصورها علمياً أو نحلم بها في

بعض الأحيان ثم علينا أن نستخدم كل قدرتنا في محاولة تسليح أبنائنا بالقدرات اللازمة لحل هذه المشاكل.. وهناك مقولة للإمام علي يقول فيها(لا تطبعوا أولادكم بطباعكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم).. فمسئوليتنا أن نعد أولادنا لزمن غير زمننا. ولقد قرأت عبارة للسهروردى[1] فى عوارف المعارف – كما وردت هذه الفكرة نفسها فى أناجيل العهد الجديد- يمكن أن نسوقها هنا لتوضيح الفروق الهائلة بين بيئة وبيئة فى تنمية العقول وشحذها، وهى عبارة يقول فيها ما معناه أن رجلاً ملأ كفه ببذور القمح، وراح يبذرها فى أماكن مختلفة، فوقع منها شئ على ظهر الطريق، فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه، ووقع منها شئ آخر على حجر أملس تغطيه طبقة رقيقة من التراب، ويبلله الندى فنبت الحب حتى إذا ما وصلت عروقه إلى سطح الحجر الأملس لم تجد طريقاً لها، فيبس النبت ومات، ثم وقع من البذور شئ ثالث فى أرض طيبة لكنها مليئة بالشوك، فنبتت البذور حتى إذا ما أراد النبت أن يرتفع، خنقه الشوك فأفسده، وأخيراً وقع من البذور شئ على أرض طيبة، ليست هى على ظهر الطريق، ولا هى على حجر أملس، ولا هى مختنقة بالشوك، فنبتت البذور ونمت وأثمرت .. ويمضى السهروردى فى هذا التشبيه، فيقول ما معناه: إن البذر

١- الدكتور زكى نجيب محمود: مجتمع جديد أو الكارثة.

الذى وقع على ظهر الطريق فتخطفته الطير، مثله مثل شخص تقدم له الأفكار الجيدة، فيدير عنها أذنيه حتى لا يسمعها فما يلبث الشيطان أن يختطفها من قلبه ليتركه خاويا، ومثل البذر الذى يقع على الحجر الأملس المغطى بقليل من التراب، كالشخص يستمع منك إلى الفكر الجيد، فيستحسنه، لكنه لا يجد فى قلبه عزما صادقا على العمل به، فيذهب ذلك الفكر الجيد هباء، ومثل البذر الذى وقع على أرض طيبة يكتنفها شوك، كالشخص يسمع منك كلامك المفيد، ويهم بالعمل بمقتضاه، لكنه يجد من الشهوات العمياء والأهواء القاتلة ما يصرفه عن ذلك العمل، وأخيراً فإن مثل البذور التى وقعت على أرض طيبة ليس فيها عوائق النمو، مثل الشخص الذى يتلقى الفكرة الجيدة فيفهمها ويعمل بها، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل.

وأود أن يتأمل القارئ تلك الحالة الثالثة من الحالات الأربع التى ذكرتها عن السهروردى لنكون جميعاً شركاء فى التغيير بالفكر والعمل، ونتيح الفرص للقدرات والمواهب الشابة للأخذ بالتغيير لمواكبة التطوير وأعنى بها الحالة التى تجود فيها طبيعة الأرض، لكن الشوك يكتنفها فيفسد نباتها، وهى حالة نرمز بها إلى الأمة التى يرزق الله أبناءها وقدة الذكاء وطيب العنصر، ومع ذلك يقل إنتاجها الفكرى أو ينعدم بسبب الأشواك البشرية التى لا تنبت الثمار، ولا يطيب لها أن تجىء الثمار من غيرها.

نحـن إلى وقـت قريـب كنـا نعتـبر الطالـب الـذي يختلـف مـع مدرسه في الرأى حول مسـألة مـا - وقـد يكـون الطالـب علـى حـق- مشاغباً مرة وغير مؤدب مرة أخرى، وقد يطرد من الفصـل ويعاقـب ولا يسمح له بالتمادي. في حين أن هذا الطالب يمكن أن يصـبح مثـل اينشتاين أو مصطفى مشرفة أو أحمد زويل فى يوم مـن الأيـام. وكـل هؤلاء العلماء لو ارتضوا بمـا قالـه لهـم أساتذتهم أو مدرسـوهم مـا اكتشفوا النظريات العلمية التي هـي أسـاس الاكتشـاف العلمـي. إن رفض الواقع أساس التقـدم في البشـرية..فهـم رفضـوا الواقـع وامتـد خيالهم إلى أبعد من الواقع الذي كانوا يعيشون فيه.. ونحـن نحتـاج أن نـرعى هـؤلاء النـاس ونمـد يـد العـون إلـيهم ونكفـل لهـم الأمـن والحمايــة ونعظـم قـدرتـهم وخـبرتـهم لكـي يسـتطيعوا أن يمنحونـا حصيلة إنتاجهم.

لقد أصبح من الواضح جداً أن نوعية التعلــيم المطلوبــة للقرن الحالى أو للموجة الثالثة هى التعليم للمستوى الثالــث. وربما لا يكفي هذا التعليم أيضاً بل يجــب أن يعقبــه تــدريب مستمر مدى الحياة، وإذا كان الإنسان سيغير مهنته من ثـلاث إلى أربع مرات فى العمر فهذا معنـاه أنـه يجـب أن يكـون لديـه قاعـدة عريضة جـداً مـن الخـبرات والقـدرات، ويكـون عنـده القـدرة علـى التكيف والانتقـال مـن تخصـص إلى تخصـص آخـر... هنـا يختلـف النظام التعليمي عما تعودنا عليه.. لقد كنا نناقش فى المؤتمر العالمى

الذى دعى إليه "جون تيبل" مبدأ التعليم الأساسى الذى كان يعنى التعليم الابتدائى.. وقمنا بمده إلى التعليم الإعدادى.. أما الآن فهل التعليم الأساسى سيكون هو التعليم قبل الجامعى؟ وهل التعليم الجامعى سيكون جزءاً من التعليم الأساسى؟ لقد ذكر "كلينتون" هذا الكلام وكذلك قاله "شيمون بيريز" عام ١٩٩٥.. وهل شكل المدرسة سيظل كما هو موجود حالياً مع تطور الإنترنت والتقدم في ثورة الاتصالات والإلكترونيات والكمبيوتر؟ هل أصبح دور المدرس نفس الدور؟ كل هذه أسئلة بعضها نستطيع بشئ من الجهد أن نتوصل لإجابة له وأغلبها مازال فى علم الغيب.

لقد أصبح من المستحيل أن نحمل أبناءنا خزائن المعلومات المتاحة لهم فهذا فوق قدرة أي بشر، وأصبح الخيار الأوحد هو أن نسلحهم بمفاتيح هذه الخزائن فقط، وأن نعلمهم طريقة استخلاص المعلومات وطريقة تنظيمها وطريقة توظيفها.. هذا هو الخيار المطروح إذ يتعين علينا أن نفكر بمنطق التنمية DEVELOPMENT وهو منطق الجودة الشاملة وليس بمنطق التعبئة MOBILIZATION وهو منطق التغيير الكمى فقط. لذلك فلابد من إحداث ثورة فى مفاهيم وأطر التعليم بالنسبة للهيكل التعليمي وبرامجه وأساليب أدائه فى الاتجاه الذي ننشده لبناء نسيج الجيل الجديد.

ويجب التركيز على مشروع المدارس المنتجة كأحد الوسائل الهامة لإرساء منطق التنمية فى التعليم خاصة في المدارس الإعدادية، ولعمل مشروعات صغيرة مرتبطة بالبيئة والمجتمع المحيط تركز على الأفكار الجديدة، والنماذج غير النمطية. ومشروع المدارس المنتجة مشروع تربوى بالدرجة الأولى يدعم أهداف العملية التعليمية ولا ينقص من دور المدرسة الأساسي فى التعليم. وتلك **المشروعات الصغيرة** تعمل على رأب الصدع والقضاء على الفجوة بين التعليم الأكاديمى وارتباطه بسوق العمل وتسليح أبنائنا بالخبرات العملية التى تمكنهم من العمل كطلائع للإنتاج. بالإضافة إلى جانب كبير من الفوائد كقدرة الطالب على ممارسة التسويق والتفاوض، ودراسة السوق، وعلى تدعيم ثقة الطالب بنفسه – وهذه الثقة قد لا يستطيع التعليم النظرى تحقيقها– وبهذا تستطيع المدرسة المنتجة أن تتيح الفرصة للطالب أن يكتسب مهارات رجل الأعمال **Young Entrepreneur** ويعمل كتاجر صغير أو منتج صغير يعرف كيفية تقصى آراء وأذواق المستهلكين، والتعامل مع الموارد، ويتعرف من خلال التجربة العملية على مشكلات السوق ويكتسب مهارات أساسية للعمل كإدارة الوقت، والتفاوض، والتخطيط الجيد، وإعداد الخطابات والتكلفة الاقتصادية، ودراسة الجدوى للمشروع، وأساليب القيادة والتأثير على الآخرين، وتقدير جهدهم، مما يعطى الطالب خبرات

التعلم المستمر والقدرة على المشاركة الفعالة فى الحياة فى مرحلة مبكرة، ويساعد فى تحول نظرته للوظيفة الحكومية كهدف نهائى للتعليم، والنظر إلى آفاق مستقبلية أوسع لطموحاته، واستخدام أفضل لإمكانياته وموارده الذاتية، فمن الممكن أن يدلى طفل صغير من أبنائنا بفكرة متميزة ويكون لها تطبيقات صناعية واقتصادية تفيد الوطن كله.. إننا فى حاجة إلى الإنسان المنتج الذى يستطيع أن يساهم فى التقدم الاقتصادى لمجتمعه خاصةً وأن التقدم الاقتصادى هو عصب الحياة والوسيلة الوحيدة لتوفير كل متطلبات النهضة فى أى دولة، وهو المصدر الأساسى لتمويل التعليم ذاته لذلك يجب أن نعزز قدرة المجتمع على التعلم الذاتى والإعداد السليم للمواطنة والتدريب المتميز ليكون منتجاً وعلى مستوى عالٍ من القدرات والخبرات.

المعلم.. إننا اليوم فى إطار الموجة الثالثة نريد إنساناً مبدعاً، فنحن نريد مدرساً من نوعية مختلفة.. مدرساً وظيفته ليست هى الناقل ولا الملقن للمعرفة بل الوسيط النشط والمنسق والمحفز لهم ومديراً للحوار الذي يستنهض به همم الطلاب، والذي يرعى مواهبهم، ويتيح لهم القدرة على النقد البناء والحوار الجاد والاختلاف في الرأي. ولكن كيف يمكن للمدرس الذي تربي على غير هذه المفاهيم أن يقوم بهذا الدور الجديد؟ مهمة صعبة جداً وتحتاج إلى جهد كبير ووقت حتى

نستطيع أن نحققها.. ولا بديل عن تحقيقها لأن هذا القرن ليس في حاجة إلى موظفين أو لعمال على خطوط إنتاج ثابتة.. فخطوط الإنتاج لم تعد ثابتة والعامل التقليدي لا وجود له. ولابد من إنسان قادر على التعامل مع الرياضيات والكمبيوتر والوسائط المتعددة واللغات، ولديه قدرة على اتخاذ القرار. وهذه نوعية مختلفة تماماً عن النوعية التي كان يخرجها النظام التعليمي القائم. لذلك فلابد من تغيير أفكار المعلمين وسلوكياتهم وخبراتهم.. وطريقة إعدادهم وتدريبهم تدريباً جيداً بحيث يتم إعدادهم لمهام ومسئوليات جديدة ومتغيرة لأننا لا نستطيع أن نستغنى عنهم ونستورد غيرهم. وهذا يستلزم العمل على التوفيق بين اعتبارات العولمة ومتطلباتها وتعميق المشاركة الديمقراطية - وهى شعار العصر- داخل المؤسسة التعليمية، لأن المناخ الديمقراطى يساعد على إظهار المواهب والإبداع، والمحافظة فى نفس الوقت على قيمنا الأصيلة التى نتمتع بها من تماسك اجتماعى، وروح الأسرة، والانتماء، والولاء، مع الاهتمام برموز الأمة تاريخياً كقدوة لأبنائنا. ومن هنا كانت أهمية التدريب كوسيلة لتطبيق هذا التغيير فى أفكار وسلوك المعلمين، وابتعاثهم إلى دول العالم المتقدمة، ليمثلوا بعد عودتهم ما يُعرف فى العلم **بالكتلة الحرجة**، وهى بداية تغير كيفى ينطلق منه طاقة إشعاع وتنشأ على الفور تغيرات نوعية خطيرة فى نمط العمل وتعطي

قوة دفع هائلة كما يحدث فى الطاقة النووية لمواكبة الثورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية وثورة الاتصالات الهائلة التى تحدث فى العالم اليوم.

ويجب أن يتوافر فى أفراد الكتلة الحرجة الإصرار والمثابرة والبعد عن الروتين الحكومي، فالكتلة الحرجة تدربوا على مخاطبة الرأى العام وكيفية التأثير على الأخرين، وهم يملكون خبرات ومهارات يجب استعمالها بدون الروتين الحكومى، ويجب أن يعتبر كل فرد منهم نفسه مسئولاً عن هذه المؤسسة.. مسئولاً عن توضيح الحقائق، والرد على المغالطات. إن هذه القوة الضاربة تستطيع أن تُحدث تأثيراً كبيراً فى الرأى العام وتشكله خصوصاً إذا تحرينا الدقة والصدق فيما نقوله، وهذا يستلزم العمل بروح الفريق ومساندة مسيرة التعليم المتنامية من قبل التربويين منظرين وممارسين ميدانيين، وتكوين لوبى مستنير من المهتمين بالشأن العام لتوضيح وتفسير وتصحيح ما استغلق فهمه من أمور التعليم.

ليس أمامنا إلا خيار واحد.. أن نجعل هذا الوطن كتلة حرجة تستطيع أن تغير وجه الحياة على أرض مصر، وأن نجعل من هذه الأرض الطيبة كنانة الله فى أرضه وواحة وحصناً للأمان، وساحة للعلم والفن، وملتقى للثقافات والأفكار. ولا سبيل إلى ذلك إلا باستثمار كل طاقة بشرية فى هذا الوطن إلى أقصى إمكاناتها ورعاية كل موهبة وكل إبداع إلى منتهاه وتعليم كل فرد رجلاً كان أم امرأة،

طفلاً أم بالغاً، سوياً أم معاقاً.. واستثمار مرحلة الطفولة المبكرة، وزيادة نسبة التعليم الجامعى، وزيادة سنوات التعليم، وتحقيق الديمقراطية وحرية الفكر.. والإيمان بثقافة الإتقان.

المناهج ونظم التقويم.. لقد كان المنهج الاختزالى للمعرفة هو المنهج السائد طوال القرنين الماضيين، واستمد مرجعيته من قوانين نيوتن والتفكير العلمى والتعليمى الذى صاحب ذلك مقسماً المعرفة ومجالات الحياة إلى أقسام مصطنعة وفصلت الأجزاء المترابطة بحواجز مصطنعة إلى جزر منعزلة ووحدات متناثرة تباعد بين التعلم والمتعلمين وبين المدرسة والمجتمع، كما قسم المنهج الاختزالى المعرفة إلى علوم والعلوم إلى فروع وقسمت منظومة التعليم إلى مراحل والمراحل إلى سنوات والسنوات إلى فصول والفصول إلى صفوف.. أما الآن فقد تغير العالم وأصبحنا فى حاجة إلى مناهج جديدة تواكب احتياجات المجتمع وتواجه تحديات المستقبل.. مناهج تحقق وحدة المعرفة وتربط بين العلوم وفروعها عن طريق العلوم البينية وتربط بين الدراسة وحاجات المجتمع ، وبين التعليم الأكاديمي والتطبيق العملى فى الإنتاج والتجارة، وتعد المواطن الصغير لكى يصبح واحداً من كل، كما تربط بين الدراسات العلمية والدراسات الإنسانية لتحقق اكتمال الشخصية السوية كما نحن فى حاجة إلى ربط التربية بالتعليم لكى نحقق

للمجتمع ترابطه ووجهه الإنساني وهويتـــه الواحـــدة وقيمـــه وجذوره.

فالعلوم الحديثة علوم بينية تمارس تأثيرها فى كافة مجـالات المعرفة وتربط بينها وصولاً إلى "وحدة المعرفة" أو "تكامل المعرفـة"، ولتقدم نسيجاً جديداً يربط بين النظرية والتطبيق ويمزج العلم بروح العصر لإحداث نقلة نوعيـة فـى أسـلوب حياتنـا وطـرق تفكيرنـا، وهــذا يتطلـب تحقيـق التكامـــل والتفاعـل بـين المـواد المختلفـة.. كالعلاقة بين التـاريخ والاقتصـاد، التـاريخ والاجتمـاع، الجغرافيـا والتاريخ، السياسة واللغة... إلخ. ونضرب مثـالا بسيطاً بالصـين[1] ففي القرن الخامس عشر وقبـل أوروبـا بخمسـمائة عـام علـى الأقـل كانت قد اكتشفت كل التكنولوجيا الـتي كانـت تؤهلـها لكـي تكـون القوة السائدة في الثورة الصناعية.. اكتشفت البارود والمـدفع والـورق والبورسلين والعجلـة والأرقـام السـالبة واكتشـفت المحـراث الآلـي وعشـرات مـن الاكتشـافات الهائلـة في تـاريخ البشـرية، لكـن هـذه التكنولوجيا اصطدمت بالعقيدة الكونفوشيوسية حيث تصور البعض أن هـذه التكنولوجيـا تتنـاقض مـع العقيـدة فلـم يسـتعملوها ولم يطوروها. وعلى العكس قـادت إنجلـترا الثـورة الصـناعية ولم تكـن مهيأة لذلك.

١- الدكتور حسين كامل بهاء الدين: الوطنية فى عالم بلا هوية.

وتــرتبط المنــاهج ارتبــاطــاً وثيقــاً بأســاليب التقويم، فنظام التقويم عندنا مبنى على الشك والخـوف ويفتقـد مقومات النجاح والاستمرار، وهو أشبه بالاستجواب، والطالب فيـه مـتهم، ويصـر المجتمـع علـى اعتبـار الامتحـان محنـة ومعانـاة، ويتعاون الجميع ويتكاتف ويستميت فى تقصير أمـده وفـى التغلـب عليه بأسرع ما يمكن وبكل الوسائل المشروعة وأحياناً غير المشـروعة بأسرع ما يمكن، بعكس النظام الذى ينبنى على الثقة والأمل والـذى يحمـل فــى طياتــه عوامـل النجـاح والتنميـة المسـتديمة. فـالتخطيط والتشريع لا يوضع على أساس الانحراف إنما على أسـاس الاسـتواء والأسس العلمية السليمة. وظلت المؤسسة التربوية نفسها - قبـل أن تثــرى علــى يــد مفكريهــا وروادهــا - تعتــبر أن عمليــة التقــويم والامتحان هى عملية فرز وتصنيف بهدف العـزل وتغـيير المسـار، وكان هذا فى إطار المنحنى الجرسى الشهير الذى يصـلح فقـط لرصـد الظواهر الطبيعية ولتقرير واقع ثابت وهو المنـاخ الـذى سيطر علـى الفكر التـربوى سنين طويلة وبمقتضاه كان المتميزون أو النابغون قلـة فى هذا المجتمع يعمل الامتحـان علـى فـرزهم ثـم إعطـائهم إشـارة المرور إلى الأمام، والتعامل مع الغالبية من غير المتميـزين بمـا يتفـق مع ما يُتَصَور عن قدرتهم طبقا لظروف المجتمـع. أما المجتمعــات المتقدمة فتعتبر التقويم حواراً متبادلاً بين الطالب والمؤسسة التعليمية، وتجربة تعليمية يجب الاســتفادة منهــا، وعمليــة

تشخيص ودراسة هدفها تعزيز قدرة الثروة البشرية بأكملها والوصول بها إلى الآفاق التى يسمح العلم الحديث بإيصالهم إليها، وتعزيز قدرات كل إنسان ودعم عناصر الموهبة فى كل طفل وعلاج أى سلبيات فى أى تلميذ وإتاحة فرص الأمل لديه، فهى عملية تنموية وهذا أمر منطقى لأن التعليم فى أساسه عملية تنموية.

إن نظام التقويم لابد أن يكون مستمراً إذ من الصعب تقييم شخص ما فى لحظة معينة قد لا تكون مناسبة له، ومثال على ذلك أنك إذا ما أردت رصد شخص ما أو عمل ما من خلال آلة تصوير فأنت تلتقط لحظة معينة فى سرعة ٥٠٠/١ من الثانية وهى سرعة العدسة، أما إذا أردت تسجيل حدث كامل فيكون ذلك عن طريق كاميرا فيديو تقوم برصد الحدث لحظة بلحظة. وكذلك فى التقويم الذى يجب أن يعطى صورة أشمل عن الطالب من خلال عدة مراحل وليس من خلال مرحلة واحدة.

فنحن لا نستطيع أن نبقى فى دائرة المنافسة الدولية ونحن نتبنى نظماً للتقويم الموسمي أو نظماً للتقويم الجزئى فى مواجهة دول تقدم وتطبق نظماً للتقويم الشامل والتقويم التراكمى والتقويم المستمر، فلا قبل للنظم الموسمية والجزئية لمنافسة النظم الحديثة للتقويم. فلابد من الانتقال من التقويم الأحادي الجامد إلى التقويم المتبادل.. ومن الشك والخوف إلى الثقة

والأمـان .. ومـن مجـرد الرصـد وتكـريس الأمـر الواقـع إلى التنميـة وتعظـيم الإمكانـات.. ومـن اسـتجواب الطالـب إلى تقـويم الطالـب والمدرسة والمؤسسـة التعليميـة.. ومـن التقـويم المـوسمى إلى التقـويم المستمر والتراكمـى والشـامل.. ومـن الرصـد والعـزل والتصـنيف إلى التغيير والتكوين والعلاج .. ومن ثقافة امـتلاك الحقيقـة المطلقـة إلى المؤمنين بالنسبية والرأي والـرأي الآخـر .. ومـن منطـق المحنـة إلى مفهـوم التجربـة.. ومـن الاسـتجواب إلى الحـوار.. والانتقـال مـن مفهوم المشكلة إلى منطق الفرصة. فلن نستطيع أن نظـل متمسـكين أو فى أحيان أخرى خائفين من تطبيق قيم التقدم متصورين - من بـاب عدم النظر إلى المستقبل ومن باب غلبة المصالح الشخصـية ومـن بـاب الأنانية التى تنتـاب الـبعض منـا - أنـه مـن الممكـن أن نطبـق هـذه المعايير والأساليب القديمة على أبنائنا، وأننا نستطيع بما لدينا مـن مال أو نفوذ أن نحصل لأبنائنا على التفوق أو اجتيـاز الامتحانـات، أو نحقق لهم الأمن والاستقرار فهذا وهم كبير لن يتحقـق.. لأنـه - جدلاً - لـو استطعنا بالـدروس الخصوصـية وبـالنفوذ وبظروفنـا أن نساعد أبناءنا على اجتياز الامتحانات واستطعنا أن نحصل لهم على وظائف نتيجـة حصـولهم علـى شـهادة، واسـتطعنا أن نضـعهم فـى مراكز مرموقة ذات دخول مرتفعة، فنحن لـن نسـتطيع ولـن نكـون موجودين لحمايتهم حينما يتقوض السلام الاجتماعى فى هذا البلـد نتيجة حرمان الأغلبية من حقها فـى التعلـيم. فسـوف تشـكل هـذه

الأغلبية خطراً رهيباً على من استأثر واحتكر حق التعليم. وإنني أثق تماماً أن ظاهرة المقاومة التى ألمسها من تبنى النظم الحديثة فى التقويم وغيرها من قيم التقدم مصدرها الأساسى تخوف له ما يبرره من ممارسات خاطئة نعاني منها، ولكن الضمانات والضوابط التى نطمئن إليها الآن كآباء ومعلمين تؤمن مستقبل أبنائنا بما تحققه من تكافؤ الفرص والعدالة وغيبة الهوى وضمان حيدة التقويم وجديته وسلامة مقصده، وأعتقد أن هذا يقطع بنا شوطاً كبيراً في اتجاه تبنى قيم التقدم ويعزز إسهاماتنا جميعا فيما ننشده.

المدرسة.. ولا تقل المدرسة أهمية عن أى عنصر من العناصر السابقة لأنها هى المكان الذى تمارس فيه جميع تطبيقات العملية التعليمية، ومن ثم يجب الاهتمام بالمدارس وتحسين الأوضاع بها، وعلى سبيل المثال فإن عدد المدارس التى تم بناؤها فى السنوات العشر الأخيرة - ١٢٣٥٠ مدرسة - يمثل ضعف ما بنى فى قرن وتسع سنوات. ومن الممكن أن تساهم عملية التوسع فى إنشاء المدارس التعاونية النموذجية- التى يساهم الطالب فيها بنسبة من مصاريف تعليمه- فى تخفيض الكثافة الطلابية فى الفصول، بما يتيح للدولة توجيه الاعتمادات الحكومية للنهوض بمدارس التعليم الحكومى المجانى، كما يمكن لمجالس الآباء والمعلمين القيام بدور رجل الأعمال القادر على جمع موارد

مالية ضخمة لتدعيم المدرسة، وأن يكون لها دور أساسى فى العملية التعليمية ومتابعة تنفيذها والاشتراك الفعلى فى التطوير، وبالمساهمة فى تمويل كل ما من شأنه أن يرفع مستوى العملية التعليمية، فضلاً عن دورها الرائد فى الرقابة الشعبية على مستوى التعليم، وربط المدرسة بالبيئة والمجتمع، وتأصيل الديمقراطية، وتعميق الاتجاهات القومية والقيم الأخلاقية والسلوكية فى نفوس الطلاب، وتعويدهم على الاهتمام بالنظافة، لأن إغفال هذا السلوك الحضارى يعنى أننا نعود جيلاً كاملاً على التعايش مع القذارة والقبح والإهمال، فيصبح هذا سلوكاً عادياً فى حياتهم ويؤثر على وجه مصر كلها، وهذه جريمة كبرى فى حق هذا البلد. فى حين أن تعويدهم على النظافة يعد قيمة جوهرية تعكس وجه مصر الحضارى.

وبالرغم من التطوير الذى شمل كل عناصر العملية التعليمية، وفى إطار الطموحات التى لا زلنا نسعى لتحقيقها، فما زال التعليم يعانى من ظاهرة خطيرة تهدد مساعى التطوير والتحديث .. تلك هى **ظاهرة الدروس الخصوصية** .. فلقد نشأت الدروس الخصوصية فى مصر فى منتصف القرن الماضى بسبب ضعف الإنفاق على التعليم نتيجة التبعات التى تحملتها مصر دفاعا عن الأرض والمبادئ، فقل الإنفاق على التعليم وبدأنا نعانى من قلة عدد المدارس، وزيادة الفترات الدراسية لتصل إلى ثلاث أو أربع

فترات فى اليوم الواحد، وزادت كثافة الفصول لتصل إلى مائة ومائتي طالب فى الفصل، وتضاءلت الإمكانات الموجودة فى المدرسة حتى فى الضروريات الأساسية للحفاظ على آدمية الإنسان، وتدنت أجور المعلمين. وأدى ذلك كله إلى فقدان المواطن العادى فى الأسرة العادية إحساسه بأن أبناءه يتعلمون تعليما جيدا داخل المؤسسة الشرعية للتعليم، وحينما تعز سلعة أو خدمة على المواطن تنشأ فى نفس اللحظة والحال سوق سوداء لبيع تلك السلعة، وهكذا كان منشأ الدروس الخصوصية، وازداد الأمر تفاقما باستمرار تدنى الإنفاق على التعليم وتضاعف التأثير السيئ لهذه الظاهرة بسبب عدة عوامل إضافية:

العامل الأول:

هجرتان كبيرتان فى المجتمع المصرى: فبعد انتصار أكتوبر الذى دفعت مصر فواتيره من أموالها وشهدائها لم تكسب ولم تجن ثمار هذا النصر ولكن الذى جنى تلك الثمار عدد من الدول المحيطة، ارتفعت قيمة مواردها الأساسية وبدأت تنعم بطفرة اقتصادية وازدهار غير مسبوق، فهاجر مئات الألوف من أبناء هذا الشعب بحثا عن الرزق فى الدول العربية والخليجية والدول الإفريقية وتركوا رعاية أولادهم لبدلاء. والهجرة الثانية كانت مع بداية عهد الانفتاح حيث اتجه جزء كبير جدا من الأسر المصرية

إلى عالم الانفتاح والتجارة والمشروعات، والبعض منهم إلى ترف الحياة الاجتماعية التى بهرتهم بأضوائها. هؤلاء المهاجرون إلى الخارج وإلى الداخل تركوا أولادهم فى رعاية بدلاء فأتاحوا الفرصة للمدرس الخصوصى ليقوم بدور الأب البديل. وبالطبع فإن الآباء والأمهات الذين تغربوا انتابهم شعور الإحساس بالذنب وحاولوا تعويض رعايتهم لأبنائهم بالإغداق عليهم بالأموال، فتحول رب الأسرة إلى الأب التمويلى الذى يرسل شهرياً المبالغ النقدية لإعطاء أولاده الدروس الخصوصية. وبدأت العملية من الصف الأول الابتدائى، وانتقلت إلى المرحلة الإعدادية ثم إلى التعليم الثانوى والتعليم الجامعى ومن الجامعة إلى الدراسات العليا، واستمرت العملية فى دائرة مغلقة لا فكاك منها.

وهكذا أدمن الأولاد الدروس الخصوصية التى تؤدى إلى نتيجة تربوية خطيرة جدا وهى فقدان الاعتماد على النفس، حيث أصبح المدرس الخصوصى يقوم بكل العمليات العقلية بدلاً من الطالب.. فهو الذى يفهم له ويستوعب له ويلخص له، وهو الذى يدربه ولا يترك له أى نوع من الجهد فيفقد الطالب القدرة على الاعتماد على النفس ويفقد المهارات الأساسية فى حل المشاكل فلا يستطيع أن يحل مشاكله لأنه مدرب فقط على حل الامتحانات. وأغلب المدرسين الخصوصيين يقومون بعمل المذكرات وينجحون فى التنشين على عدد

من الأسئلة المتوقعة من خلال خبراتهم واستقرائهم لما دار في الامتحانات السابقة أو في المحافظات المجاورة. ويدربون الأولاد على إجابة تلك الأسئلة وعندما يأتي سؤال خارج هذه القائمة أو المذكرة يقف الطالب مذهولاً مثل الممثل محدود القدرات الذى سَهَا عنه ملقنه لحظة فيصاب بالخرس ولم يستطع أن ينطق حرفا.. أما الممثل المبدع فيستطيع في الحال أن يتكلم ويبتدع أشياء جديدة ويواصل أداء دوره.

العامل الثاني :

هناك عنقا زجاجة فى جسد التعليم المصرى: الأول فى نهاية المرحلة الإعدادية، والثانى فى نهاية المرحلة الثانوية، حيث يلتحق فى نهاية المرحلة الإعدادية ٦٥٪ من الطلاب بتعليم اعتبرته الدولة والمجتمع تعليماً من الدرجة الثانية وهو التعليم الفنى الذى لا قيمة له فى هذا البلد باعتباره لا يؤدى إلى التعليم الجامعى الذى هو أمل كل شاب وفتاة. والحكومة نفسها تذهب إلى القول بأن الطالب الذى حصل علي أدنى الدرجات عليه أن يُنفى إلى هذا النوع من التعليم، ونحن أيضاً معترفون بأنه تعليم من الدرجة الثانية، ولا أحد يريد ركوب الدرجة الثانية، ولكن الكل يريد ركوب الدرجة الأولى. وحينما يحدث اختلال بين العرض والطلب كما ذكرنا من قبل تنشأ سوق سوداء لتسويق السلعة، فالأماكن

محدودة والكل يتسابق ويستعمل الطرق المشروعة وغير المشروعة فى سبيل حجز مكان له، وهو ما زاد من ظاهرة الدروس الخصوصية.. وفى الجامعة تفاقمت المشكلة بصورة أكبر حيث إن نصف الطلبة الناجحين فى شهادة الثانوية العامة فقط هم الذين يلتحقون بالجامعة، والشهادة الجامعية هى الوسيلة الوحيدة لمن ولد فى بيئة فقيرة أو متواضعة لكى يكتسب مكانة عالية في المجتمع. لذلك تزداد المنافسة على الالتحاق بالجامعة وتزداد الحاجة إلى الدروس الخصوصية فى تلك المرحلة.

إن الدروس الخصوصية تشكل خطراً كبيراً على الأمن القومى فى مصر، فهى تفقد أولادنا أهم قدرة يجب أن يتسلحوا بها وهى قدرة الاعتماد على النفس والعمليات العقلية المصاحبة للتعليم كالقدرة على حل المشاكل Problem Solving والقدرة على التفكير الإيجابى، كما تُحْتَكر الشهادة التعليمية وفرص العمل للقادرين فقط وتُحْرَم الغالبية العظمى من حقها فى هذه الشهادة وبالتالى تحرمهم حق العمل المتصل بمستوى التعليم وتضر بالسلام الاجتماعى. لذلك لابد أن تكون هناك مواجهة قومية لهذه الظاهرة، ولابد أن نعلم جميعاً أنها لو استمرت فسوف ندفع الفاتورة جميعاً وسوف نكون ضحايا لها.

وبجانب الأثر الخطير للدروس الخصوصية على إفقاد أبنائنا قدرة الاعتماد على الذات وتهديدها المدمر للسلام الاجتماعى وإهدارها الصارخ لأموال دافعى الضرائب بتفريغ المدارس من طلابها ومعلميها فإن الممارسات غيرِ الأخلاقية التى تحدث فى إطار الدروس الخصوصية تشكل تحدياً خطيراً للاستقرار الاجتماعى ومنظومة القيم والأخلاق التى ميزت هذا المجتمع، ذلك أنه من الثابت أن غالبية من مرتادى الدروس الخصوصية والمراكز الخاصة من الطلبة الذين يرون فيها مهرباً من الرقابة الأسرية والتربوية حيث هناك لا رقيب ولا حسيب ولا اعتبار أو قيمة إلا فاتورة الحساب وإتاوة الدروس الخصوصية.

مهام عاجلة

وأخيراً وليس آخراً فهناك عدة أولويات يجب أن نركـز عليها فى المرحلة القادمة لكى نستكمل بناء قوتنا الذاتية فـى مواجهة تحديات المستقبل ورياحه العاتية.

البحث العلمى و مراكز الدراسات

لقد أثبتت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ أن المعلومـات هـى مصدر القوة، وأن المعلومات الحقيقية السريعة والدقيقة تشكل عنصراً من عناصر النصر، وهناك بلاد قد رصدت مبالغ طائلة لإنشاء شبكة قومية للمعلومات، ومنهـا علـى سـبيل المثـال اليابـان التى رصدت ٢٥٠ مليار دولار للسنوات العشر القادمة لإنشاء شـبكة قومية للمعلومات، وأمريكا التى رصدت مبلـغ مليـار دولار لإنشـاء شبكة قومية للتعليم والبحث العلمى فقط. وهـو مـا يوضـح الأهميـة القصـوى لمراكـز الدراسـات والبحـث العلمـى. ويوضـح الجـدولان الإحصائيان إجمالى الانفاق المحلى علـى البحـث والتنميـة ونصـيب الصـناعة كنسـبة مئويـة مـن إجمـالى الإنفـاق المحلـى علـى البحـث والتنمية فى بعض الدول.[*]

ولقد خطت مصر خطوة كبيرة تجـاه إنشـاء العديـد مـن المراكـز البحثية مثل المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية: لحشد كافة

---

[*] أنظر جداول (٢٦، ٢٧) بملحق جداول صفحة (٢٤٣ : ٢٤٤).

إمكانيات البحث العلمى فى شئون التربية والتعليم.. ومركز تطوير المناهج وإعداد المواد التعليمية: لتخطيط وتصميم وإعدادٍ وتجريب وتنقيح وإخراج المناهج والمواد التعليمية وتقييمها ميدانياً لمراجعتها وإعادة تطويرها.. والمركز القومى للامتحانات والتقويم التربوى: لإجراء الدراسات والبحوث العلمية اللازمة لإعداد نظم الامتحانات وتقويمها وتطويرها.

ولكن لا يزال الانفصال واضحاً وجاداً بين قطاع البحث العلمى فى المراكز والأكاديميات البحثية فى مصر، وبين قطاعات الإنتاج والخدمات التى تحتاج إلى خدمات ومنجزات البحث العلمى. ولا يزال اعتماد قطاعات الإنتاج فى مصر على استيراد التكنولوجيات من الخارج دون خلق قدرة وطنية متكافئة على تطويع تلك التكنولوجيات وتطويرها.

إن انحصار أنشطة البحث العلمى فى مجالات لا تخدم قطاعات الإنتاج ولا تسهم فى تطويره ورفع إنتاجيته هى السمة البارزة للبحث العلمى فى مصر. ولم تتحدد بعد ملامح استراتيجية مصرية للتطوير التكنولوجى تستند إلى قاعدة بحثية محددة ومتطورة. ولا يزال الاهتمام بموضوع التكنولوجيا منحصراً فى نقل "التكنولوجيا" دون محاولة تطويرها. وحيث يظل الإنتاج المصرى معتمداً على التكنولوجيا المستوردة فإنه يفقد بذلك عنصر المبادأة والقدرة على التميز.

وفى إطار رصد المستقبل وتتبع إرهاصاته يجب أن ننشئ مراكز لدراسة كل ما يتعلق بالدول المحيطة بنا والدول المتقدمة والدول الواعدة مثل مراكز الدراسات الأمريكية والصينية والأوربية والإسرائيلية لكي نعرف كيف يعمل هؤلاء الأشخاص وكيف يفكرون ومواقع اتخاذ القرار عندهم ومواطن القوة والضعف فيهم، كما تتابع هذه المراكز البحث العلمى والاكتشافات العلمية والتكنولوجية عندهم.. وأن نعكف فى الفترة القادمة -والتى سبق أن قلنا أنها ستكون فترة صعبة- على إنشاء مراكز لأبحاث الفضاء ومراكز الدراسات المستقبلية والتكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا البرمجيات والطفولة المبكرة. كما يجب أن نركز على صناعة البرمجيات لأنها أصبحت الآن صناعة واعدة وخطيرة وذات قيمة مضافة عالية جداً، كما أن صناعة المواد الأولية فيها رخيصة جداً ومتوافرة. على سبيل المثال فإن قيمة صادرات إسرائيل من منتجات البرمجيات سنوياً تبلغ حوالى ٩ مليارات من الدولارات، وتهدف الهند بحلول سنة ٢٠٢٠ إلى أن يصل تصديرها من البرمجيات إلى ٥٠ مليار دولار سنوياً.

ويجب تدريب شبابنا على التعلم الذاتى، وعلى البحث عن المعلومة، وطرق وأساليب البحث العلمى المختلفة، وكيفية البحث والوصول لحل المشاكل والتصرف فى المواقف العملية التى تطرأ فى واقع الحياة. كما يجب الاهتمام بتدريبهم على التكنولوجيا

الحيوية وتكنولوجيا الاتصالات. ويوضح الجدول الإحصائى الإنفاق على تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى بعض الدول.(*) ولا شك فى أن المكتبة، والبحوث الميدانية، والبحوث المشتركة والتجارب العملية، والزيارات الميدانية، تلعب دوراً أساسياً فى صقل تجربة الشباب، وتسليحه بالخبرات والقدرات التى تمكنه من التعامل والتفاعل مع واقع الحياة فى المجتمع.

(*) - انظر الجدول (٢٨) بملحق الجداول صفحة (٢٤٥).

التكنولوجيا

إن إدخال تكنولوجيا التعليم المطورة إلى كل مدرسة على أرض مصر هدف رئيسى، فاليوم تحتوى كل مدرسة على أجهزة كمبيوتر، ومعامل مطورة، وأقراص ليزر، وقنوات تعليمية، وتدريس الفيزياء والكيمياء والهندسة الوراثية بالحاسب الآلى، والاتصال بشبكات المعلومات العالمية(Internet)، والاتصال بشبكة الفيديو كونفرانس (Video Conference).

هذا إنجاز كبير جداً لدرجة أن هناك عدداً من الدول المتقدمة لم تستطع تحقيق هذا الإنجاز حتى الآن وهو ما أكده رئيس البنك الدولي في واشنطن فى أبريل ٢٠٠٠، بعد أن زار مصر وشاهد قدرة أولادنا الفائقة على استعمال الكمبيوتر والإنترنت والتكنولوجيا المتقدمة فى مدارس حكومية عادية فى القاهرة ومرسى مطروح، كما أبدى إعجابه الشديد بقدرة أولاد مصر وتمكنهم من استعمال هذه التكنولوجيا ودهشته من أن تحقق مصر ذلك فى خلال زمن قياسى لا يتعدى ست سنوات.

إن إدخال التكنولوجيا المطورة في مدارسنا خطوة كبيرة على طريق تحقيق التعليم المتميز للجميع وترسيخ مبدأ التعلم الذاتى لأن الطالب الذي يستخدم الكمبيوتر ويدخل المعمل ويدرس الرياضيات

والكيمياء بالحاسب، قطعاً سيترك الحفظ والتلقين إلى غير رجعة، لأنه متى بدأ يبحث عن مصادر المعرفة ويربط بين المعلومات بعضها ببعض ويستغل حواسه وملكاته في عملية التعلم، فإنه ينتقل تلقائياً من الحفظ والتلقين إلى الفهم والتحليل.

وقد بدأت مصر هذا العام بتطبيق مشروع الحكومة الإلكترونية بالكامل فى المؤسسة التعليمية، وسوف يُحدث ذلك ثورة في نظام العمل بمحاوره الأربعة:

١- خريطة كاملة لكل مبنى مدرسى على أرض مصر إلكترونياً.

٢-قاعدة بيانات إلكترونية عن كل العاملين في وزارة التربية والتعليم.

٣-قاعدة بيانات كاملة عن أعمال التدريب بوزارة التربية والتعليم.

٤-مؤشرات التعليم لكل طالب وطالبة على أرض مصر.

وبرغم هذه الإنجازات فلا وقت للإحساس الخاطئ بالأمان ولا فرصة أمامنا إلا مزيد من العمل الجاد والرؤية المستنيرة والتفانى فى تحمل المسئولية والإصرار بلا تردد للوصول إلى القمة.

السياحـة

إن السياحة مـورد أساسـى مـن مـوارد الدولـة.. وتتمتـع مصـر بمناخ مناسب معظم أيام السنة.. وبها تباين بيئـى وجغرافـى شيق للغاية وجاذب للانتباه ما بين صحارى وواحات وبحار ونيل وجبال وخضرة ومحميات وآثار ومنتجعات.. وشعبها شعب ودود. وكانـت مصر دائماً بحكم التـاريخ والمكـان معـبراً للحضـارات. تلتقـى فيهـا الأفكار ويكـرم فيهـا الـزوار. وإذا كـان حجـم المـوارد المحققـة مـن السـياحة وهـو ٣,٢ تريليـون دولار حاليـاً يمثـل ١٠٪ مـن الـدخل القومى الإجمالى العالمى، فأين نصيبنا من هذا الدخل؟ وكيـف يمكـن أن نتحول إلى دولة سياحية؟ ويشير الجـدول الإحصـائى إلى الـدخل والإنفاق على السياحة وأعداد السائحين فى بعض الدول.(*)

وبداية فـإن صـناعة السـياحة وهـى مـن كـبرى صـناعات الغـد تحتاج إلى بنية أساسية وإلى كـوادر بشرية.. بنيـة أساسـية تعتمـد على توفير كل ما يحتاجه السائح من خدمات وكـل مـا يحفـزه علـى تكرار الزيارة مـن بيئـة نظيفـة ومنـاظر طبيعيـة خلابـة وخـدمات فندقية متميزة ووسائل ترفيهية متنوعة.. كما تحتـاج وبقـدر أكـبر إلى شـعب تعلـم كيـف يعـرف قـدر السياحة.. درسـها فـى منـاهج تعليمه واستعد لها بمعرفـة تاريخـه وآثـاره ومزاراتـه السـياحية،

(*) أنظر الجدول (٢٩) بملحق الجداول صفحة (٢٤٦ : ٢٤٧).

وتدرب لها بإتقان اللغـات الأجنبيـة، ودراسـة خصـائص الشـعوب المختلفة.. شعب يقابل السائح كضيف عزيز علـى بلـد عـرف دائماً حسـن الضـيافة وإكـرام الـزوار.. وكـوادر متخصصـة درسـت علـم السياحة دراسـة علميـة عصـرية، وأتـيح لهـا تـدريب عملـى علـى مستوى عالمى، وكوادر إدارية تُقدم على إنهاء الإجـراءات الإداريـة التـى يجـب أن نطورهـا بمعـايير عالميـة بسـرعة وكفـاءة واقتـدار، وتتعامل مع السائح كمستثمر يساهم فى تنمية صناعة السـياحة فـى هذا البلد الذى فضله السائح على غيره من بـلاد العـالم المنافسـة لنـا فى السياحة.

وعلى الرغم من أن مصر تملك ذخـائر كنـوز الأرض مـن الآثـار والعوامل الطبيعية التى تشجع بالدرجة الأولى النشاط السياحى فـإن نصيبها منه يعتبر محدوداً للغاية بالنسبة لدول أخرى مثل فرنسـا وإسبانيا مما يحتم علينا ضرورة استغلال هذا المصدر الغنـى والـدائم لسد الفجوة التنموية فى مصر وإتاحة مئات الآلاف من فرص العمـل للشباب. فصناعة السياحة يمكن أن تحقق دخلاً متزايـداً وتقلـل مـن البطالة بالإضافة إلى آثارها الإيجابية فـى دعـم صـداقة مصـر بكافـة الشعوب.

الحلم القومى

إننا فى أشد الحاجة فى هذه المرحلة الدقيقة فى تاريخ الوطن إلى حلم قومى يحشد قوى الأمة ويحيى الامل ويرفع الروح المعنوية للناس ويجدد الثقة.. حلم قومى بدولة حديثة تحقق الرفاهية والأمن والسلام والاستقرار لمواطنيها.. حلم قوميٍ يجدد أمجاد الماضى وحضارة الجدود العظام الذين ملئوا الدنيا نورا وعلماً وفناً وثقافة.. حلم قومى يجسد المقولة الشهيرة "مصر أم الدنيا ".. حلم قومى يجعل هذا البلد منيعاً آمنا فجنودها هم "خير أجناد الأرض".. حلم قومى يحقق كنانة الله فى أرضه.. حلم قومى يؤكد النسيج الوطنى الواحد ويدعم الهوية المصرية ويعمق احترام إنسانية أصغر مواطن ويضمن حرية كل فرد فيها..لا يُحجر فيها على رأى ولا يُقصف فيها قلم ولا تُنتهك إنسانية مواطن ولا يبيت فيها جوعان أو مشرد.. بلد تظله مبادئ التكافل والرحمة.. مجتمع له وجه إنسانى مشرق وعقل علمى مستنير ويد قوية ترهب من يفكر فى الاعتداء عليها فمصر هى أم الدنيا.. الملاذ والمراد.. نبع الخير والحنان وحضن الدفء والأمان وأحب وأعز الأوطان.. مصر التى تحتضن بنيها وتطعمهم وتربيهم وتؤلف بين قلوبهم.. مصر هى أم الدنيا التيِ وسع قلبها حب الخير والإنسانية كلها.. مصر التى تشكل مثلا لغيرها وواحة للتسامح والحرية والسلام.. تشع بنورها وثقافاتها- كما فعلت من قبل- إلى ربوع الدنيا وإلى أمتها

العربية وإلى قارتها الإفريقية.. بلد له فى موازيين القوى شأن وفى حسابات الزمن موقف.. بعث جديد لحضارة عريقة.. كوادر شابة وصف ثان فى كل موقع تجسد الانتماء وتعكس قيم التقدم.. وتبرهن بآرائها وتصرفاتها على المثل والقدوة. وتبلور فيه الحلم القومى من خلال الحوار الديمقراطى، والرأى والرأى الآخر.. نحن فى حاجة إلى عمل حزبى يتبنى أعضاءه ويرفع من قدرهم وينمى قدراتهم ويصقل مهاراتهم.. بلد فيه قيمة الإنسانية لا تنازعها قيمة أخرى.. بلد يفخر كل مواطنيه بالانتماء إليه وتشد كل بنيها مهما ابتعدوا أو اقتربوا بالحنين إليها، تجسيداً لقول أمير الشعراء أحمد شوقى:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ونحن نملك مقومات هذه الدولة ونملك من تاريخنا وإنجاز شعبنا علامات على الطريق ونملك من قيمنا وإرادتنا ضمانات وعوامل للنجاح.

نحن فى حاجة إلى أن نجمع جهودنا لنبلور معاً حلماً قومياً واحداً يقضى على أسباب التوتر والشعور بالاحباط.. ويحشد أغلبية المصريين الشرفاء لحماية المجتمع من الثلاثية المدمرة التى ثبت عبر التاريخ أنها كانت سبب فشل وسقوط الإمبراطوريات والدول العظمى.. الثلاثية المتمثلة فى التفاوت

وعدم التكافؤ الصارخ بين شرائح المجتمع.. الفساد.. انحسار القيم الأخلاقية، ونحن نملك من قيم هذا الشعب العظيم وتراثه التليد ومن قياداته الحكيمة ما يمكننا من هذا.. نحن بحاجة إلى الإيمان بهدف نتجمع حوله، ورسالة نؤمن بها وحلم يقوى عزيمتنا على المضى قدما برغم كل المتاعب والصعاب.

إننا فى حاجة إلى حلم قومى يكون البلسم الذى يعالج الجسد العربى الذى أصابه الضعف والوهن ليعود صحيحاً معافاً قوياً قادراً على الحركة مؤهلاً للمنافسة الدولية.

ولعل ما يحدث الآن من ضغط علينا وتحجيم لقوتنا يكون فيه رجاء وحدتنا، فالأزمة تلد الهمة. فنحن فى حاجة إلى إقامة تجمع عربى قومى - الحلم القومى القديم - على أساس من الوفاق وتبادل المصالح والاتفاق النابع من رغبة الشعوب الحقيقية فالاتحاد والوفاق لا يتحقق بأمر أو قرار وإنما هو ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وتربتها هى النوايا الخالصة والقيم الإسلامية والعربية والحضارية الأصيلة، والاتحاد هو السبيل الوحيد الذى يكفل للدول العربية سيادتها وحريتها. ولا يتحقق ذلك إلا إذا جمعت الأمة العربية كلمتها، وعرفت طريقها، وكان أمرها بيدها. ولعل توحداً عربياً عملياً فى مجال السوق العربية الواحدة وتطوير التعليم والعناية

بالطفولة المبكرة، يكون مدخلاً يوماً من الأيام إلى ولايات عربية متحدة.

لقد كان للعرب شعار قومى يؤكد عزتهم ويدعم هويتهم ووطنيتهم عبر عنه الشاعر العربى حين قال :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم .. بين طعن القنا وخفق البنود

لكن هوان العرب على أنفسهم جعلهم يتناسون هذا الشعار منذ زمان وقنعوا بحياة الاستكانة والخمول فى حين أن الغربيين الذين توارثوه منذ وقت ليس ببعيد قد جعلوه مثلهم الأعلى وساروا فى حياتهم على مقتضاه فدعموا حضارتهم ..لابد من حلم قومى يبعث فى العرب روحاً جديدة ويربى فى أبنائنا قيمنا الأصيلة التى تناسيناها..لابد من رسالة وعى قومى عربى يؤدى إلى بعث جديد لعزة العرب وحضارتهم العريقة.. رسالة ترتفع فوق مستوى الشعارات وتترفع عن الصغائر والمهاترات وتتنزه عن الهوى والمصالح الشخصية وتسمو إلى مستوى الموقف الذى يتعين مواجهته والهدف الذى لابد أن نحاول الوصول إليه.

علينا أن نخلق مناخاً اقتصاديا وسياسياً واجتماعيا يزيل أسباب التخاذل والتواكل والسلبية ويحفز روح العمل والإنتاج ويشجع المنافسة والمبادرات الفردية ويرعى الإبداع ويقضى على الإحساس بالغربة المكانية ويتصدى للفساد ويعطى

فرصة لتحقيق مبدأ إتاحة الفرص خاصة بالنسبة لغير القادرين فى إطار من العدل والتكافؤ والتكافل ويقضى على ضعف الهمم وجمود الأذهان ويحرر العقول من سيطرة الخرافات ويطهر النفوس من أسر الشهوات. وعلينا أيضاً أن نحترم قيمة العلم وإيقاظ وتنبيه الشعور والوجدان بالروح الوطنية وتأكيد قيمة الحوار والنقد البناء.

لابد من الإصلاح الأخلاقي وتأكيد الهوية والانتماء والوطنية بتربية أبنائنا تربية قادرة على إبراز تراثنا الحضارى وقيمنا الدينية السمحة. ونحن فى ذلك نقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم فى إصلاح الفرد ومن ثم المجتمع " ما من عبد إلا وله سريرة وعلانية فمن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أفسد سريرته أفسد الله علانيته".

ويبقى أن نحول النوايا الصادقة والطموحات الكبيرة إلى واقع عملي وأن نتخلى عن الأنانية وأن نغلب الصالح العام على المصالح الذاتية وأن نتعاون جميعاً فى تحويل هذا الحلم القومى إلى واقع يومي، وأن ننجح فى تحويل الآمال والطموحات إلى فعل وإنجاز لنحقق معاً الأهداف الكبرى التى يتعين على مصر أن تحققها فى أقرب فرصة. لم يعد هناك وقت فالعالم يجرى من حولنا بسرعة الصواريخ، والعالم المتقدم لن ينتظر أحداً. وفى عالم يسود فيه منطق

العلم والقوة فلا مكان للضعفاء إلا فى مجاهل التهميش وزوايا النسيان.

لم يعد أمامنا إلا أن نبدل غليان الغضب إلى طاقة عمل وأن نحول اللامبالاة والسلبية إلى مشاركة فعالة وفعل مسئول وأن نعتبر المصاعب والمشاكل التى تواجهنا تحدياً لإرادة هذا الشعب العظيم واختباراً جديداً لصلابته وقدراته الخلاقة.. لم يعد هناك وقت للحزن والألم.. لم يعد هناك وقت للتباكى على ما فات فقد دقت ساعة العمل وأزفت مرحلة الانطلاق. ومصر أم الدنيا وقلب الأمة العربية النابض تستحق مكاناً عالياً فى هذا الكون وأبناؤها البررة قادرون. وقد حانت ساعة الاختبار وأصبحنا فى مواجهة مفترق الطرق، وعلينا السير فى الطريق الصحيح.. ونحن قادرون بإذن الله على تحديد الهدف وبلوغ الأمل.

دكتور حسين كامل بهاء الدين

ملحق الجداول

جدول (١)
نصيب الفرد من الدخل القومى بالدولار

الدولة	نصيب الفرد من الدخل القومى بالدولار عام ٢٠٠١
أمريكا	٣٤٨٧٠
اليابان	٣٥٩٩٠
ألمانيا	٢٣٧٠٠
المملكة المتحدة	٢٤٢٣٠
فرنسا	٢٢٦٩٠
إسرائيل	١٦٧١٠
الكويت	١٨٠٣٠
الإمارات	١٨٠٦٠
الصين	٣٦٠٠
مصر	١٥٣٠
سوريا	١٠٠٠
لبنان	٤٠١٠
السعودية	٧٢٣٠
المغرب	١١٨٠
تونس	٢٠٧٠

(تابع) جدول (١)
نصيب الفرد من الدخل القومى بالدولار

الدولة	نصيب الفرد من الدخل القومى بالدولار عام ٢٠٠١
الجزائر	١٦٣٠
إيران	١٧٥٠
تركيا	٢٥٤٠
الهند	٤٦٠

Sources:

World Bank Development Data Group 2002.

The New York Times ALMANAC 2002.

جدول (٢)

العلماء و المهندسين في البحث والتنمية

الدولة	عدد العلماء و المهندسين في البحث والتنمية لكل مليون من السكان عام ٩٠ – ٢٠٠٠
أمريكا	٤١٠٣
اليابان	٤٩٦٠
ألمانيا	٢٨٧٣
المملكة المتحدة	٢٦٧٨
فرنسا	٢٦٨٦
إسرائيل	١٥٧٠
الكويت	٢١٤
الصين	٤٥٩
مصر	٤٩٣
سوريا	٢٩
تونس	١٢٤
إيران	٥٩٠
تركيا	٣٠٣
الهند	١٥٨

Source:

UNDP-Human Development Report 2002.

جدول (٣)
عدد الفنيين في البحث والتنمية

الدولة	عدد الفنيين فى البحث والتنمية لكل مليون مواطن عام ١٩٨٧-١٩٩٧
اليابان	٨٢٧
ألمانيا	١٤٧٢
المملكة المتحدة	١٠١٧
فرنسا	٢٨٧٣
الكويت	٧١
الصين	٢٠٠
مصر	٣٤١
سوريا	٢٥
تونس	٥٧
إيران	١٦٦
الهند	١٠٨

Source:
World Development Indicators 2001.

جدول (٤)
متوسط عدد سنوات التعليم بالنسبة للفرد على مستوى الدولة

الدولة	متوسط عدد السنوات المدرسية للسكان فى عمر ٢٥ عاماً فأكثر
أمريكا	١٢,٢٥
اليابان	٩,٧٢
ألمانيا	٩,٧٥
المملكة المتحدة	٩,٣٥
فرنسا	٨,٣٧
إسرائيل	٩,٢٣
الكويت	٧,٠٥
الإمارات	٢,٨٨
الصين	٥,٧٤
مصر	٥,٠٥
سوريا	٥,٧٤
تونس	٤,٢٠
الجزائر	٤,٧٢
إيران	٤,٦٦
تركيا	٤,٨٠
الهند	٤,٧٧

Source:

Center of International Development at Harvard University 2002.

جدول (٥)
عدد براءات الاختراع

الدولة	براءات الاختراع الممنوحة لكل مليون من السكان عام ١٩٩٨
أمريكا	٢٨٩
اليابان	٩٩٤
ألمانيا	٢٣٥
المملكة المتحدة	٨٢
فرنسا	٢٠٥
إسرائيل	٧٤
الصين	١
المغرب	٣
إيران	١
الهند	١

Source:
UNDP-Human Development Report 2002.

جدول (٦)
عدد مستخدمي الإنترنت

الدولة	عدد مستخدمي الإنترنت (بالألف)
أمريكا	٩٥٣٥٤
اليابان	٤٧٠٨٠
ألمانيا	٢٤٠٠٠
المملكة المتحدة	١٨٠٠٠
فرنسا	٨٥٠٠
إسرائيل	١٢٧٠
الكويت	١٥٠
الإمارات	٧٣٥
الصين	٢٢٥٠٠
مصر	٤٥٠
سوريا	٣٠
لبنان	٣٠٠
السعودية	٢٠٠
المغرب	٢٠٠
تونس	١٠٠
الجزائر	٥٠
إيران	٢٥٠
تركيا	٢٠٠٠
الهند	٥٠٠٠

Source:

The World Bank Group 2002.

جدول (٧)
عدد أجهزة الحاسب الآلى لكل ألف من السكان عام ٢٠٠٠

الدولة	عدد أجهزة الحاسب الآلى لكل ألف من السكان عام ٢٠٠٠
أمريكا	٥٨٥,٢
اليابان	٣١٥,٢
ألمانيا	٣٣٦
المملكة المتحدة	٣٣٧,٨
فرنسا	٣٠٤,٣
إسرائيل	٢٥٣,٦
الكويت	١٣٠,٦
الإمارات	١٥٣,٥
الصين	١٥,٩
مصر	٢٢,١
سوريا	١٥,٤
لبنان	٥٠,١
السعودية	٦٠,٢
المغرب	١٢,٣
تونس	٢٢,٩
الجزائر	٦,٥
إيران	٦٢,٨
تركيا	٣٨,١
الهند	٤,٥

Source:

The World Bank Group 2002.

جدول (٨)
عدد خطوط التليفون لكل ١٠٠٠ من السكان عام ٢٠٠٠

الدولة	عدد خطوط التليفون لكل ١٠٠٠ من السكان عام ٢٠٠٠
أمريكا	٧٠٠
اليابان	٥٨٦
ألمانيا	٦١١
المملكة المتحدة	٥٨٩
فرنسا	٥٧٩
إسرائيل	٤٨٢
الكويت	٢٤٤
الإمارات	٣٩١
الصين	١١٢
مصر	٨٦
سوريا	١٠٣
لبنان	١٩٥
السعودية	١٣٧
المغرب	٥٠
تونس	٩٠
الجزائر	٥٧
إيران	١٤٩
تركيا	٢٨٠
الهند	٣٢

Source:

The World Bank Group 2002.

جدول (٩)
عدد التليفونات المحمولة لكل ١٠٠٠ من السكان

الدولة	عدد التليفونات المحمولة لكل ١٠٠٠ من السكان عام ٢٠٠٠
أمريكا	٣٩٨
اليابان	٥٢٦
ألمانيا	٥٨٦
المملكة المتحدة	٧٢٧
فرنسا	٤٩٣
إسرائيل	٧٠٢
الكويت	٢٤٩
الإمارات	٥٤٨
الصين	٦٦
مصر	٢١
سوريا	٢
لبنان	٢١٢
السعودية	٦٤
تونس	٦
الجزائر	٣
إيران	١٥
تركيا	٢٤٦
الهند	٤

Source:

The World Bank Group 2002.

جدول (١٠)
أجهزة الراديو

الدولة	عدد أجهزة الراديو لكل ١٠٠٠ من السكان عام ٢٠٠٠
أمريكا	٢١١٨
اليابان	٩٥٦
ألمانيا	٩٤٨
المملكة المتحدة	١٤٣٢
فرنسا	٩٥٠
إسرائيل	٥٢٦
الكويت	٦٢٤
الإمارات	٣١٨
الصين	٣٣٩
مصر	٣٣٩
سوريا	٢٧٦
لبنان	٦٨٧
السعودية	٣٢٦
المغرب	٢٤٣
تونس	١٥٨
الجزائر	٢٤٤
إيران	٢٨١
تركيا	٥٧٣
الهند	١٢١

Source:

World Bank Group 2002.

جدول (١١)
أجهزة التليفزيون

الدولة	عدد أجهزة التليفزيون لكل ١٠٠٠ من السكان عام ٢٠٠٠
أمريكا	٨٥٤
اليابان	٧٢٥
ألمانيا	٥٨٦
المملكة المتحدة	٦٥٣
فرنسا	٦٢٨
إسرائيل	٣٣٥
الكويت	٤٨٦
الإمارات	٢٩٢
الصين	٢٩٣
مصر	١٨٩
سوريا	٦٧
لبنان	٣٣٥
السعودية	٢٦٤
المغرب	١٦٦
تونس	١٩٨
الجزائر	١١٠
إيران	١٦٣
تركيا	٤٤٩

Source:

World Bank Group 2002.

جدول (١٢)
معدل استهلاك الفرد من الكهرباء

الدولة	استهلاك الكهرباء لكل فرد ك وات/ ساعة عام ١٩٩٩
أمريكا	١١٩٩٤
اليابان	٧٤٤٣
ألمانيا	٥٦٩٠
المملكة المتحدة	٥٣٨٤
فرنسا	٦٣٩٢
الصين	٧٥٨
إسرائيل	٥٦٨٩
مصر	٩٠٠
سوريا	٨٦٣
لبنان	١٧٧٨
السعودية	٤٧١٠
المغرب	٤٣٠
تونس	٩١١
الجزائر	٥٨١
الكويت	١٤٠١١
الإمارات	١٠٦٤٣
إيران	١٤٠٧
تركيا	١٣٩٦
الهند	٣٧٩

Source:

Human Development Report 2002

جدول (١٣)
الجرائد اليومية

الدولة	الصحف اليومية لكل ١٠٠٠ شخص عام ٢٠٠٠
أمريكا	٢١٣
اليابان	٥٧٨
ألمانيا	٣٠٥
المملكة المتحدة	٣٢٩
فرنسا	٢٠١
إسرائيل	٢٩٠
الكويت	٣٧٤
الإمارات	١٥٦
مصر	٣٥
سوريا	٢٠
لبنان	١٠٧
السعودية	٣٢٦
المغرب	٢٦
تونس	٣١
الجزائر	٢٧
إيران	٢٨
تركيا	١١١
الهند	٤٨

Source:

UNESCO, Institute for Statistics, Statistical Yearbook 1999 Last update – 4th June 2002.

جدول (١٤)
عدد الحاصلين على الماجستير (٩٤- ٩٥)

الدولة	عدد الحاصلين على الماجستير
اليابان	٥٦٠٣٨
ألمانيا	١٠٥٨٠٠
المملكة المتحدة	١٠٠٦٠٠
فرنسا	٩٣٦٦٦
الكويت	٢٠٥
الإمارات	٥٧
مصر	٥٩٨٤
سوريا	٤٩٥
لبنان	٦٦٦
السعودية	١٢٨٠
المغرب	١١١١
تونس	٢٥٩٩
الجزائر	٣٦٠٥

Sources:

1- UNESCO - The Higher Education Systems in the Arab States: Development of Science and Technology Indicators 1998.
2- Statistics on Higher Education , extracted from Germany's Basic and Structural Data 1999/2000.
3-Education and Training Statistics for the United Kingdom 1998 Editon.
4-"Recensement des diplômes délivrés par les universitiés – Session 2000", Tableaux statistiques, à paraitre.
5-Tableaux statistiques, n° 6143.
6-Minister's Secretariat, Ministry of Education, Japan.

جدول (١٥)
عدد الحاصلين على الدكتوراه (٩٤- ٩٥)

الدولة	عدد الحاصلين على الدكتوراه
اليابان	١٢٣٧٥
ألمانيا	٢٢٣٠٠
المملكة المتحدة	١٠٢٠٠
فرنسا	٩٩٢٦
الكويت	٢٥
الإمارات	٥٣
مصر	٣٤٢١
سوريا	٩٠
لبنان	١١٦
السعودية	٤٥٠
المغرب	٤٨٥
تونس	٣٤٩
الجزائر	٧٨٤

Sources:

1- UNESCO - The Higher Education Systems in the Arab States: Development of Science and Technology Indicators 1998.

2- Statistics on Higher Education , extracted from Germany's Basic and Structural Data 1999/2000.
3-Education and Training Statistics for the United Kingdom 1998 Editon.
4-"Recensement des diplômes délivrés par les universitiés – Session 2000", Tableaux statistiques, à paraitre.
5-Tableaux statistiques, n° 6143.
6-Minister's Secretariat, Ministry of Education, Japan.

جدول (١٦)
الإنفاق العام على التعليم

الدولة	كنسبة من الناتج القومى ١٩٩٥/١٩٩٧ (%)	كنسبة من إجمالى الإنفاق الحكومى ١٩٩٥/١٩٩٧ (%)
أمريكا	٥,٤	١٤,٤
اليابان	٣,٦	٩,٩
ألمانيا	٤,٨	٩,٦
المملكة المتحدة	٥,٣	١١,٦
فرنسا	٦,٠	١٠,٩
إسرائيل	٧,٦	١٢,٣
الكويت	٥,٠	١٤,٠
الإمارات	١,٧	٢٠,٣
الصين	٢,٣	١٢,٢
مصر	٤,٨	١٤,٩
سوريا	٤,٢	١٣,٦
لبنان	٢,٥	٨,٢
السعودية	٧,٥	٢٢,٨
المغرب	٥,٣	٢٤,٩
تونس	٧,٧	١٩,٩
الجزائر	٥,١	١٦,٤
إيران	٤,٠	١٧,٨
تركيا	٢,٢	١٤,٧
الهند	٣,٢	١١,٦

Source:

Human Development Report 2002.

جدول (١٧)
أمراض سوء التغذية للأطفال

الدولة	أمراض سوء التغذية للأطفال كنسبة مئوية من الأطفال في سن أقل من ٥ سنوات (%)
أمريكا	١
الكويت	٢
الإمارات	٧
الصين	١٠
مصر	٤
سوريا	١٣
لبنان	٣
تونس	٤
الجزائر	١٣
إيران	١١
تركيا	٨
الهند	٤٧

Source:
World Development Indicators 2002.

جدول (١٨)
الإنفاق على الطالب فى مرحلة التعليم الأساسي

الدولة	ما ينفق على الطالب بالدولار عام ١٩٩٦ فى مرحلة التعليم الأساسي
أمريكا	٤٧٦٣,٤
اليابان	٦٩٥٩,٨
ألمانيا	٥١٩٦,٦
المملكة المتحدة	٣٣٣٢
فرنسا	٤٢٠٣,٢
إسرائيل	٢٦٩٧,٩
الكويت	٢٤٣٤,٦
الصين	٤٥
مصر	١٢٩,٦
سوريا	٨٩,٦
لبنان	٢٠١
السعودية	١٣٣٧,٦
المغرب	١٤١,٩
تونس	٢٨٩,٥
إيران	١٠٦,٨
تركيا	٢٥٤,٧

Sources:

The World Bank Group 2002.

UNESCO World Education Indicators 2000.

جدول (١٩)
الإنفاق على الطالب فى مرحلة التعليم الجامعى

الدولة	ما ينفق على الطالب بالدولار عام ١٩٩٦ فى مرحلة التعليم الجامعى
أمريكا	٧٠٠٥
اليابان	٥٧٣١,٦
ألمانيا	١٠٩٧٠,٦
المملكة المتحدة	٧٨٤٠
فرنسا	٧٣٥٥,٦
إسرائيل	٥٨٧١,٩
الكويت	١٥١٢٩,٣
الصين	٥٠٢,٥
مصر	٧٣٤,٤
سوريا	٦٩٤,٤٠
السعودية	٤٠٨٣,٢٠
المغرب	٨٧٧,٢
تونس	١٥٢٤,٧
إيران	٨٠١
تركيا	١٠١٨,٨

Sources:

The World Bank Group 2002.
UNESCO World Education Indicators 2000.

جدول (٢٠)
السلم التعليمى

الدولة	سنوات التعليم الإلزامى	
	السن	المدة
أمريكا	٦-١٦	١٠
اليابان	٦-١٥	٩
ألمانيا	٦-١٨	١٢
المملكة المتحدة	٥-١٦	١١
فرنسا	٦-١٦	١٠
إسرائيل	٥-١٥	١١
الكويت	٦-١٤	٨
الإمارات	٦-١٢	٦
الصين	٧-١٥	٩
مصر	٦-١٤	٨
سوريا	٦-١٢	٦
المغرب	٧-١٦	٦
تونس	٦-١٦	٩
الجزائر	٦-١٥	٩
إيران	٦-١١	٥
تركيا	٦-١٤	٥
الهند	٦-١٤	٨

Source:

UNESCO, Statistical Yearbook 1999.

جدول (٢١)
الأميـــــــــة

الدولة	نسبة من لا يعرفون القراءة والكتابة من البالغين في سن ١٥ سنة فأكثر عام ٢٠٠٠ (%)	
	إناث	ذكور
إسرائيل	٧,٦	٣,٢
الكويت	٢٠,٣	١٦
الإمارات	٢٠,٧	٢٥
الصين	٢٣,٧	٨,٣
مصر	٥٦,٢	٣٣,٤
سوريا	٣٩,٥	١١,٧
لبنان	١٩,٧	٧,٩
السعودية	٣٣,١	١٦,٩
المغرب	٦٣,٩	٣٨,٢
تونس	٣٩,٤	١٨,٦
الجزائر	٤٢,٩	٢٣,٨
إيران	٣٠,٧	١٦,٨
تركيا	٢٣,٥	٦,٥
الهند	٥٤,٦	٣١,٦

Source:

UNDP-Human Development Report 2002

جدول (٢٢)
التعليم الجامعى للطالبات
النسبة المئوية للطالبات فى مجالات التعليم المختلفة

الدولة	جميع المجالات (%)
اليابان	٤٤
ألمانيا	٤٦
المملكة المتحدة	٥١
فرنسا	٥٥
الكويت	٦٢
الإمارات	٧٢
مصر	٤٢
سوريا	٣٩
لبنان	٤٩
السعودية	٤٨
المغرب	٤١
تونس	٤٥
الجزائر	٤٤
إيران	٣٧
تركيا	٣٨
الهند	٣٦

Source:

UNESCO's World Education Indicators 2000.

جدول (٢٣)
الالتحاق بالتعليم الجامعي (١٩٩٧)

الدولة	نسبة الالتحاق بالتعليم الجامعى من الفئة العمرية المناظرة (%)
أمريكا	٨١
اليابان	٤١
ألمانيا	٤٧
المملكة المتحدة	٥٢
فرنسا	٥١
إسرائيل	٤١
الكويت	١٩
الإمارات	١٢
الصين	٦
مصر	٢٠
سوريا	١٦
لبنان	٢٧
السعودية	١٦
المغرب	١١
تونس	١٤
الجزائر	١٢
إيران	١٨
تركيا	٢١
الهند	٧

Source:

World Development Indicators 2001.

جدول (٢٤)
الطلبة الجامعيين فى العلوم والرياضيات والهندسة كنسبة من إجمالى طلاب الجامعات ٩٤ – ٩٧

الدولة	الطلبة الجامعيين فى العلوم والرياضيات والهندسة كنسبة من إجمالى طلاب الجامعات ٩٤ – ٩٧ (%)
اليابان	٢٣
ألمانيا	٣١
المملكة المتحدة	٢٩
فرنسا	٢٥
الكويت	٢٣
الإمارات	٢٧
الصين	٥٣
مصر	١٥
سوريا	٣١
لبنان	١٧
السعودية	١٨
المغرب	٢٩
تونس	٢٧
الجزائر	٥٠
إيران	٣٦
تركيا	٢٢
الهند	٢٥

Source:

UNDP-Human Development Report 2002.

جدول (٢٥)
نسب العائد الاقتصادى مقارنة بالتكلفة فى بعض المشروعات المختارة

م	المشروع	نسبة العائد (%)
١	مشروع تنمية غابات هيل بنيبال	١,١٨
٢	مشروع إليكوس لتحسين نظم الرى بالفلبين	١,٤٨
٣	مشروع تنمية الثروة الحيوانية بأروجواى	١,٥٩
٤	مصانع كوندا للأسمنت بإستونيا	٢,٢٧
٥	مشروع تنمية الطفولة المبكرة ببوليفيا	٣,٠٦
٦	مشروع تنمية الطفولة المبكرة بالفلبين	٣,٠٠
٧	مشروع بيري لمرحلة ما قبل المدرسة بالولايات المتحدة	٧,١٦

Source:

AIID, Amsterdam Institute for International Development.

جدول (٢٦)
إجمالى الإنفاق المحلي على البحث والتنمية

الدولة	العملة	سنة البحث	إجمالى نفقات البحث والتنمية
أمريكا	دولار	١٩٩٥	١٧١٠٠٠٠٠٠
اليابان	ين	١٩٩١	١٣٧٧١٥٢٤٠٠٠
ألمانيا	مارك	١٩٩٣	٧٦٧٢١٠٠٠
المملكة المتحدة	جنيه استرلينى	١٩٩٣	١٣٨٢٩٠٠٠
فرنسا	فرنك	١٩٩٤	١٧٥٥٦٣٠٠٠
إسرائيل	شيكل	١٩٩٥	٥٨٤٢٠٠٠
الكويت	دينار	١٩٨٤	٧١١٦٣
تونس	دينار	١٩٩٧	٦٠٠١٥
إيران	ريال	١٩٩٤	٦٢٠٨٤٩٣٢٠
تركيا	ليرة	١٩٩٥	٢٩٥٠٩٣٩٥٠٠٠
الهند	روبية	١٩٩٤	٧٥٠٦٣٥٠٠

Source:

UNESCO, Institute For Statistics, Statistical Yearbook 1999, last update 4th June 2002.

جدول (٢٧)
إنفاق الصناعة كنسبة مئوية من إجمالى الإنفاق المحلى على البحث العلمى والتنمية (٢٠٠٠)

الدولة	النسبة (%)
أمريكا	٦٨,٣
اليابان	٧٢,٤
ألمانيا	٦٦,٥
المملكة المتحدة	٤٩,٣
فرنسا	٥٢,٥
إسرائيل	٦٣,٧
تركيا	٤٢,٩

Source:

OECD, Main Science and Technology Indicators, 2002.

جدول (٢٨)
الإنفاق على تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات عام ٢٠٠١

الدولة	جملة الإنفاق على تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات (بالمليون دولار)	الإنفاق على تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات للفرد بالدولار
أمريكا	٨١٢٦٣٥	٢٩٢٣,٨
اليابان	٤١٣٧٧٢	٣٢٥٦,٢
ألمانيا	١٥٤٦٤٥	١٨٨٠,٤
المملكة المتحدة	١٣٧٧٢٦	٢٣١٨,٦
فرنسا	١٢٠٥٦٩	٢٠٤٨,٣
الصين	٦٦٦١٢	٥٢,٧
مصر	٢٣٨٣	٣٦,٨
تركيا	٩٣١٣	١٤٢,٧
الهند	١٩٦٦٢	١٩

<u>Source</u>:
World Bank Group 2002.

جدول (٢٩)
الدخل والإنفاق على السياحة لكل دولة وأعداد السائحين ونسبة تغيرها

الدولة	الإنفاق على السياحة العالمية (بالمليون دولار) لعام ٢٠٠٠	النسبة المئوية لنصيب الدولة من سوق السياحة الإقليمى ١٩٩٩ (%)	أعداد السائحين لعام ٢٠٠٠	معدل التغير السنوى فى السياحة (%)
أمريكا	٦٥٠٤٤	٦٥,٧	٥٢٦٩٠٠٠٠	+ ٨,٧
اليابان	٣١٤٨٠	٤٤,٧	٤٧٥٨٠٠٠	+ ٧,٢
ألمانيا	٤٧٦٠٧	٢٢,٤	١٨٩١٦٠٠٠	+ ١٠,٥
المملكة المتحدة	٣٦٥٦٠	١٦,٥	٢٤٩٠٠٠٠٠	- ١,٩
فرنسا	١٧١٦٦	٨,٦	٧٤٥٠٠٠٠٠	+ ٢,٠
إسرائيل	٢٧٠٠	١,٢	٢٤٠٠٠٠٠	+ ٣,٨
الصين	..	١٤,٨	٣١٢٣٦٠٠٠	+ ١٥,٥
مصر	١٠٠٠	٢١,٩	٥١٥٠٠٠٠	+ ١٤,٧
سوريا	٧٠٠	١٢,٨	..	..
لبنان	..	..	٧٥١٠٠٠	+ ١١,٦
المغرب	٤٣٠	٨,٧	٤١٠٠٠٠٠	+ ٧,٤
تونس	..	٤,٧	٥٠٥٧٠٠٠	+ ٤,٧

(تابع) جدول (٢٩)
الدخل والإنفاق على السياحة لكل دولة وأعداد السائحين ونسبة تغيرها

الدولة	الإنفاق على السياحة العالمية (بالمليون دولار) لعام ٢٠٠٠	النسبة المئوية لنصيب الدولة من سوق السياحة الإقليمى ١٩٩٩ (%)	أعداد السائحين لعام ٢٠٠٠	معدل التغير السنوى في السياحة (%)
الجزائر	..	..	٨٥٩٠٠٠	+ ١٣,٨
إيران	١٣٥٠	٢٥,١	١٧٠٠٠٠٠	+ ٢٨,٧
تركيا	١٧١١	٠,٧	٩٦٢٣٠٠٠	+ ٣٩,٦
الهند	..	٥٥	٢٦٢٤٠٠٠	+٥,٧

Note: (..) Data not available.

Source:

World Tourism Organization (WTO) 2001.

المراجع العربية

- ترجمة الدكتور عثمان أمين (١٩٥٢): مشروع للسـلام الدائم للفيلسوف "كانت"، مكتبة الانجلو المصرية.
- الدكتور جمـال الـدين الرمـادى (١٩٦٣): الأمـن والسـلام فـى الإسـلام دار المعارف.
- الدكتور جمال حمدان (١٩٦٤): الاستعمار والتحرير فى العالم العربى، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- الدكتور سعيد عبد الفتـاح عاشـور (١٩٦٤): أضـواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصـرية للتـأليف والترجمة.
- الدكتور زكى نجيب محمود (١٩٨٣): مجتمع جديـد أو الكارثة، دار الشـروق.

****

المراجع الأجنبية

1. Adams, John Quincy. http://www.law.umkc.edu/faculty/projects ftrials/amistad/AMI_BADA.HTM
2. Bard, Alexander. & Söderqvist, Jan. "Netocracy: The New Power Elite and Life after Capitalism", London: Pearson Education Ltd, 2002.
3. Batra, Ravi. "The Great American Deception: What Politicians Won't Tell You about Our Economy and Your Future", New York: John Wiley & Sons Inc., 1996.
4. Borjesson, Kristina. "Into the Buzzsaw: Leading Journalists Expose the Myth of a Free Press", New York: Prometheus Books, 2002.
5. Brandt, David. & Kriegel, Robert. "Sacred Cows Make the Best Burgers: Developing Change-Ready People and Organizations", New York: Warner Books Inc., 1996.
6. Caine, Renate Nummela. & Caine, Geoffrey. "The Brain/Mind Learning Principles", http://cainelearning.com/hosts/

7. Chomsky, Noam. "World Orders Old and New", Cairo: The American University in Cairo Press, 1994.

8. Costello, Patrick J.M. "Thinking Skills and Early Childhood Education", London: David Fulton Publishers Ltd, 2000.

9. Covey, Stephen R. "Principle-Centered Leader-ship", New York: Simon and Schuster, 1992.

10. Florida, Richard. "The Rise of the Creative Class: And How It's Transforming Work, Leisure, Community and Everyday Life", New York: The Perseus Books Group, 2002.

11. Gardner, Howard. "Multiple Intelligences: The Theory in Practice", New York: The Perseus Books Group, 1993.

12. Gleick, James. "Chaos Making a New Science", London: Penguin Books Ltd, 1988.

13. Guyatt, David G. "Anti Personnel Electro-magnetic Weapons, Toward a Psycho – Civilized Society",

http://www.involved.com/ewolfe/DISTRESS/DG-bio.htm

14. Handy, Charles. "The Hungry Spirit: Beyond Capitalism-A Quest for Purpose in the Modern World", London: Random House Ltd, 1998.

15. Hertz, Noreena. "The Silent Takeover: Global Capitalism and the Death of Democracy", London: Random House Ltd, 2002.

16. Hooper, Alan. & Potter, John. "Intelligent Leadership: Creating a Passion for Change", London: Random House Ltd, 2000.

17. Husén, Torsten. & Postlethwaite, T. Neville. "The International Encyclopedia of Education", Oxford: Elsevier Science Ltd, 1994.

18. Joy, Bill. "Why the Future Doesn't Need Us", 2000,
http://www.wired.com/wired/archive/8.04/joy.html

19. Kah, Gary H. "En Route to Global Occupation: A High Ranking Government Liaison Exposes the Secret Agenda for World Unification", Louisiana: Huntington House Publishers, 1992.

20. King, Martin Luther. "Biography",
http://www.nobel.se/peace/laureates/1964/king-bio.html

21. Kotter, John P. "The New Rules: How to Succeed in Today's Post-Corporate World", New York: Simon & Schuster Inc., 1995.
22. Kurzweil, Ray. "The Age of Spiritual Machines: When Computers Exceed Human Intelligence", New York: Penguin Putnam Inc., 1999.
23. Longstreet, Wilma S. & Shane, Harlod G. "Curriculum for a New Millennium", New York: Simon and Schuster Inc., 1993.
24. Ohmae, Kenichi. "The End of the Nation State: The Rise of Regional Economies", London: HarperCollins Publishers, 1996.
25. Pauling, Linus Carl. "Nobel Peace Prize Winners 2002-1901", http://www.nobelprizes.com/nobel/peace.html
26. Pinker, Steven. "How the Mind Works", New York: W.W. Norton & Company Inc., 1997.
27. Postman, Neil. "Building a Bridge to the Eighteenth Century: How the Past Can Improve the Future", New York: Random House Inc., 1999.
28. Postman, Neil. "The End of Education: Redefining the Value of School", New York: Random House Inc., 1996.

29. Rawls, John. "20th Century Philosophy", http://www.erraticimpact.com/~20thcentury/html/john_rawls.htm

30. Ray, Michael. & Rinzler, Alan. "The New Paradigm in Business: Emerging Strategies for Leadership and Organizational Change", New York: The Putnam Publishing Group, 1993.

31. Reich, Robert B. "The Work of Nations: Preparing Ourselves for the 21st Century Capitalism", London: Simon & Schuster Ltd, 1993.

32. Rifkin, Jeremy. "The Biotech Century: Harnessing the Gene and Remaking the World", New York: Penguin Putnam Inc., 1998.

33. Rifkin, Jeremy & Heilbroner, Robert L. "The End of Work: The Decline of the Global Labor Force and the Dawn of the Post-Market Era", Putnam Publishing Group, 1996.

34. Roosevelt, Theodore. "Nobel Peace Prize Winners 2002-1901", http://www.nobelprizes.com/nobel/peace.html

35. Sagan, Carl. "The Demon-Haunted World: Science as a Candle in the Dark", New York: Random House Inc., 1996.

36. Thurow, Lester C. "Building Wealth: The New Rules for Individuals, Companies, and Nations in a Knowledge-Based Economy", New York: HarperCollins Publishers Inc., 1999.

37. Thurow, Lester C. "The Future of Capitalism: How Today's Economic Forces Shape Tomorrow's World", New York: Penguin Putnam Inc., 1997.

38. Uchida, Donna. & Cetron, Marvin. & Mckenzie Floretta. "Preparing Students for the 21st Century", Virginia: American Association of School Administrators, 1996.

39. Wright, John W. "The New York Times 2002 Almanac: Terrorist Attacks, Census 2000 Results", New York: Penguin Putnam Inc., 2002.

40. Yergin, Daniel. & Stanislaw, Joseph. "The Commanding Heights: The Battle between Government and the Marketplace that is Remaking the Modern World", New York: Simon and Schuster Inc., 1999.

نبذة عن المؤلف

الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين

- حاصل على شهادة بكالوريوس طب جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ ودكتوراه طب الأطفال عام ١٩٥٩.
- أمين منظمة الشباب المصرية عام ١٩٦٥.
- أمين المهنيين بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى عام ١٩٦٨.
- أستاذ طب الأطفال بجامعة القاهرة عام ١٩٧٣.
- رئيس قسم طب الأطفال ومدير مستشفى الأطفال الجامعى الجديد بالقاهرة ١٩٨٣-١٩٩١.
- رئيس الجمعية المصرية لطب الأطفال منذ عام ١٩٨٩ حتى الآن.
- رئيس الاتحاد العربى لطب الأطفال ١٩٨٩ إلى ١٩٩٣، ومن ١٩٩٩ حتى الآن.
- رئيس الجمعية الدولية لطب أطفال المناطق الحارة ١٩٩٣-١٩٩٦.
- وزير التعليم منذ عام ١٩٩١ وحتى الآن.

بعض جوائز التكريم الحاصل عليها:

- درع الشرف من نقابة الأطباء المصرية فى عامى ١٩٨٤ و١٩٩١.
- الجائزة الدولية لصحة الطفل من منظمة الصحة العالمية عام ١٩٨٩.
- الأستاذية الفخرية من جامعة طشقند بأوزباكستان عام ١٩٩٢.
- درجة الزمالة للجمعية الملكية للأطباء والجراحين بجلاسجو بالمملكة المتحدة عام ١٩٩٣.
- جائزة دوجراماتشى (لرواد التعليم الطبى فى العالم) من الجمعية الدولية لطب الأطفال عام ١٩٩٥.
- الدكتوراه الفخرية فى العلوم من جامعة جلاسجو بالمملكة المتحدة يونيو ١٩٩٧.
- الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة إيست أنجيليا البريطانية يوليو ١٩٩٧.
- الدكتوراه الفخرية من جامعة هاشيتيبى التركية عام ١٩٩٧.

- درع اليونيسيف بمناسبة اليوبيل الذهبى للمنظمة عام ١٩٩٧.
- الدكتوراه الفخرية من جامعة سانت أولاف بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩.
- جائزة الامتياز الدولية من الهيئة الجامعية للتعليم المستمر من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩.
- ميدالية إلمهاتما غاندى من اليونسكو عام ٢٠٠٠.
- الأستاذية الفخرية من جامعة بكين عام ٢٠٠٠.
- جائزة أفضل عمل ثقافى وكتاب لعام ٢٠٠٠ من معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ٢٠٠١.
- ميدالية الشرف العالمية من جامعة سان جون عام ٢٠٠١.
- اختير كأحد الشخصيات العامة والعلمية فى عدد كبير من الموسوعات العالمية.

المؤلفات:

- الأسلوب العلمى فى العمل السياسى عام ١٩٦٨.
- طب الأطفال وأساسياته عام ١٩٧٥.
- دليل الآباء فى نمو وتنشئة الطفل عام ١٩٩٠.
- طفلك وكيف تحميه من الأمراض الشائعة عام ١٩٩٠.
- التعليم والمستقبل عام ١٩٩٩- دار المعارف الطبعة السادسة .
- الوطنية فى عالم بلا هوية عام ٢٠٠٠ - دار المعارف الطبعة الرابعة .
- أكثر من مائة بحث فى طب الأطفال.

إن الزلازل لا تحدث فجأة ولا تنتهى بغتة وإنما لها مقدمات وتعقبها توابع . فلا استطاعت العولمة بكل تقدمها العلمى وانجازها التكنولوجى أن ترصد العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولا نحن استطعنا فى عالمنا العربى والإسلامى أن ندرك أننا قد اهدرنا ثروات كبيرة وانفقنا الوقت فيما لا يُنفق فيه.
لقد كانت أحداث ١١ سبتمبر وما تبعها، صدمة أيقظت الكثيرين على واقعنا المؤلم وفجوتنا العلمية والتكنولوجية والحضارية التى زادت من الاحساس بالعجز واليأس .

فهل هذا هو مصير الحضارة المصرية القديمة والعربية والإسلامية التى سادت هذا المكان وسجلته فى صحائف الزمن؟ ! نحن فى مفترق طرق .. فما العمل ؟! هذا هو السؤال! ! أما الإجابة عليه فهى موضوع حديثنا فى هذا الكتاب .



